رواية

لأنهم يموتون في الربيع

العربي عبد الوهاب

لأنهم يموتون فى الربيع

رواية

العربى عبد الوهاب

دراسة

د. رمضان بسطاويسي

فهرس

دق المسامير ..... - ٥ -

الـ ـ زئبـ ـ ق ..... - ٢٤ -

فاتحة ..... - ٣٣ -

صعود الزئبق ..... - ٧٤ -

هبوط الزئبق ..... - ١٤٨ -

إهـــــداء

إلى القادم بلا اسم

دق المسامير

الطاهر مرزوق

مابين طحلة ومسطرد تتخبط الآن قدمى.

ما بين الزقازيق، وظلام الليل فـى الشـوارع الضـيقة واصلا إلى الحجرة التى أسكننى إياها العـم شـوقى كنـت أتخبط.

تعبت - يا طاهر - وأخيرا تحت صحن مـن التـرمس تنادى.

يستوقفك شلن.. بريزة.. يستزيدون.. تزيدهم.. حبـات.. ملاليم.

صارت القاهرة أفعى تلتهمنى كـل يـوم. أمـوت بـين شوارعها، وعماراتها العالية.. أتعثر فى الحفر والبالوعـات والشوارع المتربة. على رأسى صحن التـرمس وقـراطيس ورقية. وأمامى شمس تصفر وتذبل فى طريقها للغروب.

راحت أيام عربات أنابيب الغاز، مكسب عشرون جنيهـا فى اليوم.

كنت أتكرع كالتيس بعد أكل الكفتة والكباب.. أيام ليسـت بعيدة.. باعدت الوظيفة بينى وبين التكرع اللذيذ. قبلنى حمادة فى المدرسة. وقبلت الصغيرة شيماء. أيام المرضى أوشـكت على الانتهاء. أخرج من حبسى. كيف حالـــك - الآن - فى الحبس يا بهيه؟ تختبئون فى شقوق السعودية حتى يحضر الحجاج من كل بلد، كالنمل يزحفـون. فينطلـق سـراحهم. يختلط الحجيج.. يتساوى القادم على ظهر سـفينة بالمسـافر كالبرق.

الساعة العاشرة صباحا، والشمس مازالت تتبختـر بـين سحب رمادية، ولا عربة تلين فتأخذنى.

لو تشعرين بألمى يا نجلاء رغم نومك بجـوارى علـى سرير واحد. تقلقين بحضورك نومى، وسـكوتى ووهنـى.. النقر القديم يعاود الدق ... مسامير تخبط فى رأسى، تكسـر العظام.

يركبنى النوم. وعدم الرغبة فى رؤية الناس، والطعـام، والحياة، ماذا أفعل إذا كاد الشرود يقتلنى تحت عجلات عربة نقل منذ أسبوع؟!.

زحف العجلات أفاقنى. طار الطبق من فوقى. تبعثـرت. ملعون الترمس والطواف بين العزب ومسـطرد والمسـلة. أحياء الغلابة متهالكة.

من يشترى يا ناس؟

ترمس.. تسالى.

تسالى.. يا ترمس.

كيف اختصرت قوتى تحت صحن الترمس؟ بين حـارات وشوارع وبلكونات تشبه عجـوزا. تقـوس حتـى لا مـس الأرض. من المسؤول؟؟

حمادة.. شيماء.. أم حمادة.. أبى.. عرفه.. زنوبه.

أم العمل صباحا فى جامعـة الأزهـر. أحمـل شـكائر الأسمنت، الطوب، الرمل، نبنى كشكا يصلح لخروف سيقتله الانتظار عند البوابة الفرعية بجامعة الأزهر حيـث البـرد ومراقبة اللاشئ.

مأمورية.

الأسبوع قبل الماضى أخذت ثلاث مأموريات على حساب كشك الأمن.

عربة نقل نصر بصندوق خشب.

"استنى يا أسطى".

بكل سرعة استندت على عجلة العربة. تعلقـت بالأيـدى الممدودة.

انطلق السائق. فور ارتفاع قدمه اختل توازنى فارتميـت عليهم.

ترانى وضعت القفل فى العجلة. الولد حمـادة يتحنجـل عليها. ربما يسحبها للعيال فى الشارع تركبها.. أو تكسرها.

ملعون النسيان.

ما كان يجب أن أسافر.

كادت الحوائط أن تكتم أنفاسى.

أذهب لدار أختى.. لا.. الزقازيق مازالت بعيدة. فلأنـزل المشروع. أذهب إلى طحلة أولا. أود أن أنام وحدى.

ارتجت العربة، وتلاعبت بالطريق.. واضح أن السـائق يتمايل مع غنوة سلامات.

بهيه، إبراهيم، عزيزة، عرفه، محمد، مصطفى، وأنا

غير من ماتوا من أمى ومن زنوبه.

كثيرون يا أبى وبرد الشتاء لا يرحم.

الصديرى خفيف.

وعربة مكشوفة تشكو لرب السماء ضعفها وانقيادها الفج لسائق غير مهتم.

ليست لى علاقة بك يا بلبيس. لا أحبك. ولا أعرف السر. ربما الرشاح.. رائحته النتنـة.. الميـاه الطافحـة تـذكرنى بالشوارع المؤدية إلى أوضتى فى عزبة الحريـرى، حيـث بيت العم شوقى الحاتى. ظلمة ونباح كـلاب وخـبط فـوق رأسى.

لو جابت ولد.

امرأة إبراهيم أخى، يكون فأرا صغيرا كأبيـه. يسـتحق لطمتى له فى المرة السابقة. يسب الدين؟!!!

تقول بهيه " الخير راح من وشها " أنا شفت أواخر أيـام الخير هذه.

كان الذرة يملأ سطح الدار. زنوبه تبيع للجيران دون علم أبى. استحرمت واحدة - كانت تحب أمى - سـرقة شـقاء الرجال والعيال.

زنوبه تبيع الذرة والأرز لتأكل بلح الشام والحلوى.

كان أبى على فراش الموت. قام ليضربها، فلكزته "إنـت لسه فيك صحة يا راجل".

عشرة أعوام على رحيلك يا أبى.

أنت مسؤول عن عشرين عاما من عمرى.

ولن أسامحك.

الساعة تقترب من الثانية عشرة. قـدمى تخـبط إسـفلت الطريق من المشروع. رشاح الصرف واصلا للبلدة.

أرمى بعينى لاخضرار الحقول، ثم تخرج مـن الصـدر آهة.. هنا العشر قراريط التى اشـتراها عرفـه - بفلـوس زوجته - مؤخرا من عيال زنوبه.. يتمايل زرعها. يزرعها الآن محمد. أذكر عرفه مشمرا جلبابه فـى حـر الظهيـرة. يضرب فأسه فى خطوطها. ويزعق فى أن أضرب الجاموسة المتوقفة فى مدار الساقية بالفرقلّة. ويتساقط الصمغ المتجمـد فى شقوق شجرة السنط تحت ضربات سن قلمى. أتسلق وقت غفلة أبى أو عرفه شجرة السنط لأقطع منهـا فرعـا كـى أضرب الجاموسة.. وأجمع الصمغ السائل من عينى الشجرة فى حقنة بنسلين فارغة محكما عليها الغطاء الأحمر.

ربما تكون الشجرة باقية لكن الأرض!!.

من مزق الأرض وباعها؟؟.

أكان عليك يا عرفه أن تجرب الترمس مثلـى. تحـاول الوقوف على كوبرى مسطرد - بعربة خشبية - ولـم تجـد موطأ لقدم.

العربات الآتية من عبود متجهة للمسلة أو بهتيم القادمـة من شبرا ذاهبة إلى المطرية، السرفيس، الملاكـى، النقـل، السريحة، عربات الفول المدمس، الكشرى، اللاب، كلهم احتلوا المكان يا عرفه.. لم يتبق لنا إلا أقداما تتخبط فـى شـوارع وأزقة يعلوها الغبار وأكوام القمامة.

يقبلنى من يحتكر توريد الترمس - سريحا آخر - يقـول أن هذه منطقته.. ربما نتبادل السب، يحتدم الجدل، فنشـتبك بالأيدى. يضحك علينا سكان البيوت، ولا ينـزل أحـد كـى يشترى. تتورم قدمى ويجف الحلق.

ونجلاء تنحنى كل سنة - على ماكينة الخياطة - أكثر.

عشر سنوات ونعافر.

قرأت الفاتحة لسيدى " على النجار " تتمايل أعواد الفـول والشمس تختال بسطوعها على الغيطان، ينزل أبـو قـردان يغرس منقاره الطويل فى طين الأرض باحثا. ويصعد.

ترتاح روحى إذ أقترب من طحلة بردين. أحبها وأمقتهـا معا. أحب شوارعها.. بيوت الطـين.. يتجلـى مـن فـوق أسطحها قش الأرز. أما صوامع الطين الواقفة فـى شـموخ فهى مملوءة بالحبوب. أنا رأيت تلك الصـوامع فـى بيتنـا سرعان ما تنقص ويسأل أبى زنوبه عن السر فتقول " العيال كبرت وبتاكل ".. أحب الجرن ولعب الاستغماية، نجرى بين حوارى طحلة، نختبئ فى الأزقة المظلمة ولا نخاف ننـادى على بعضنا حين نحس بالتعب. نتجمع عند " الأمـة " فـى الجرن. ونختتم ليلتنا تحت شجرة الصفصاف نتبادل الحكايات والمواقف المضحكة، نتبارى فى إظهار بطولاتنا الوهمية مع الكبار؛ أحس دفئا حين أدخلها. ولا أعرف لماذا يغتم القلـب فى لحظات. حزن كدبيب النمل يتسرب إلى النفس. هذا الولد الذى كنته منذ عشرين عاما يطرده أبوه. يغلق دونه الأبواب.

أفترش حصير المسجد، أو الخلاء أمـام بيـت عمتـى. بزحف البرد إلى عظـامى - لـيلا - فـأتكور.. أحتمـى بالجوالات المهملة.. يتشممنى كلب عابر، حين تكون زنوبـه قد أوسعت ساقيها، فيأتيها أبى، يمضغ الطعام والدفء. حتى " عرفه " العاقل الذى تعيرنى بصلاحه، ويزرع معك الأرض طردته أيضا. من أجل زنوبه.. لا.. هى زنوبه من تطرد أو تعفو.

كيف جعلتك هكذا يا أبى؟!!

ثانى يوم :

قال الحاج أحمد زوج عمتى : عمك صبحى سابلك الفلـوس دى.

وعليك أن تدفع أنت وأخوك ما يخصكما لهدم المقبرتين، ورفع البناء.

وضعت الفلوس - بلا اهتمام - فى جيب الصديرى.

طبق الجبن القريش والقشدة على طبلية قصيرة الأرجـل أمامه. قال : أفطر.. قعدت. حشوت بطنى الخاوى منذ ظهر أمس. شربت الشاى.. جاءت عمتى. كانت فوق سطح الـدار تقشر أغلفة الذرة.

بادرتنى : مال صوتك واطى.. معرفش إنك هنا.

ابتسمت.

تابعتنى بنظراتها من أن لآخر.

قالت : مسهم ليه يا ولا؟

رد الحاج : سبيه يا أم السيد.

وضعت قدمى فى الشبشب وانطلقت إلى الدار كى ألحـق بإبراهيم قبل ذهابه إلى المزرعة التى يشتغل فيها. بالأمس لم أتحدث معه، باركت له على المولود. أعطيت زوجته النقوط. كانت ليلة طويلة ما لها آخر. سمعت فى الليل دقا على بابى. كان محمد عائدا متأخرا. ربما دارت دماغه، فأخطـأ بـاب زوجته. حاولت النوم فما جاءنى غير وجوه الراحلين. أتقلب على الفراش إثر تسرب البراغيـث إلـى جسـدى مرحبـة بحضورى. كان الولد الشقى يطلع منـى زاحفـا مشكشـكا الذاكرة.. أتحسس الشباك الحديدى للسرير. أذكر بهيه أختى، طلبت منها السرير لكى أنام عليه، وأحتجـز بـه أودتـى - ميراثى - فى دار أبى. وأضع القفل على بابها.

زنوبه تستحوذ على الدار. وأرض أبنائها. وتبيع للناس - وللفلوس - حتى آخر قيراط.

إبراهيم يكلم الولد النائم فى أقماطه كما لو كـان رجـلا. يزعق فيه آمرا بالسكوت. قلت تعـالى معـى اليـوم نهـد المقبرتين.

قال : والمزرعة.

قلت : ساعتين يا أخى. وافق متضررا.

الريح تصفر وإبراهيم يحمل الفأس ومقطفىْ الجلد. ينظر حواليه. قامات الكافور تتمايل وسط المدافن. تراب ناعم يهبط بأقدامنا. السكون يبعث على الوحشة. قرأت الفاتحة، إبراهيم يصفر. نبهته أن يقرأ، فردد الفاتحة بصوت عال. هل عقـل إبراهيم أبيض؟!!

قد قارب العشرين، لا يستحق الأربع قراريط التى باعتهن – من نصيبه - لزواجه.

وقفت أمام مقبرة أمى.. أردد قصار الصور. أذكر قوالب الطوب والسيدة واختفائها. ولم يرتعش القلب. أتحسس بيـدى محارة المقبرة، فتنهار.. هنا قعدت بهيه تنادى علـى أمهـا. حملت التراب بيدها وحطت على شعرها المحلول لـم يكـن سوى التراب.

إبراهيم وقف كحمار ربطته فى الأرض ونسيته. لم ينزل من على كتفه الفأس ومقطف الجلد.

سحبت من بين يديه الفأس. وطلبت الأجنة. مد يده بتراخ. كدت أوبخه لكنى تراجعت. هيبة المكان منعتنى.

بجوار قبر أبيه وقف واضعا يده على الشاهد. أخذت أهيل بالأجنة بعضا من المحارة - مقبرة أمى - ثم أثبت طرفهـا الحاد بين تجاويف الطوب. الإسمنت غـائر بـين القوالـب الحجرية المتآكلة الحواف. دققت.

تأبى الطوب أن ينحل عن بعضه بعد عناق طويل. أدق.. تسقط الأجنة. وإبراهيم نائم بجزعه محتضنا الشاهد. صرخت فيه، أفاق مذعورا.

بكل قوتى ضربت العناق الحميم، فانهارت كتلة حجرية.. سقطت داخل المقبرة، خارت قواها وأشعرتنى أنى تجبـرت عليها. بدقة واحدة فصلت العلاقـة القديمـة. تمـزق خـيط التلاحم. بانت عظام المقبرة - لحظة ولاحظت عظاما تنـدك فور مرور الهواء إليها. حتى العظام تأبى الحياة.

أكملت الهدم بتؤدة. مسح إبراهيم وجهه أكثر مـن مـرة؛ كان ماردى يتطلع لأطلال مقبرته - بداخله - كلمـا سـقط حجر. كأنه يسقط فى نفس حجرة مظلمة. يتعثـر.. يقـوم.. يقابلنى فى حوارى طحلة فأتضاءل، أولى الأدبار فارا منه.

الآن.. كيف أفر؟ وإلى من؟ وممن أفر؟!

من ماردى الذى يعذبنى؟.

أم من الجوالات القديمة فى برد شتاء قاس.

أم من زنوبه وطحلة كلها.

يا ألله كم أنت رحيم.

إبراهيم كوم ناتج الهدم سليما ورصه بنظام.

اندفعت إلى المقبرة الملاصقة - لأبى - سبقنى إبـراهيم قائلا : استنى. بسمل وتحلقت شفتاه بما لا أفهمـه. إنـه لا يحفظ شيئا.. لا يعرف القراءة. ألحقه أبـى بمعهـد التربيـة الفكرية فى الزقازيق بعدما رسب ثلاث سنوات ولم يفلح.

قلت : كفاية يا إبراهيم.. أبوك مات من عشر سنين. تراجع متضايقا؛ كأنه لا يصدق أن الأب مـات فعلا.

ما تبقى من العظام خمسة جماجم. أخرجت من مقبرة أمى اثنتين وثلاث من مقبرة أبى. لملمت بقايا العظام المنهـارة.. كومتها فى الوسط. إبراهيم يتطلع للعظام. يدقق النظر. قلـت أرسله إلى البلدة كى يحضر البناء والطوب من دار الحـاج أحمد زوج عمتى حتى أستكمل الهدم.

نظرت إلى الغيطان المحيطة بالمدافن. والغـيط القريـب الذى باعته زنوبه بعد موت أبى بعام واحد.. أمى وقفت تبكى على أختى ثناء وهى ذاهبة - من هنا - إلى أبى بالغداء.

كيف تسمرت قدماها فى الأرض؟.

قالت بهيه : انغرست فى الأرض تحاول نقل قدميها ولـم تقدر.

كأن واحدا يمسك بهما. دموعها نزلت من أجل ثناء وعلى حالها.. " خدينى يا أختى ".. لولا عبور واحد أثنـاء القيالـة وبسؤاله عن سبب وقفتها هكذا. لما انفك لجام قدميها.

تحسستُ الجماجم واحدة.. واحدة.. من أمى فيكم؟؟

تطاير التراب فى وجهى، الريح تعفر المزارع، تلطم بقوة أعالى الكافور؟

قعدت بجوارهم. لامست يدى واحدة تنظر نحوى.. رفعتها إلى وجهى.. ترانى كنت قاعدا عند قدميك - ابن عـامين - فى مرضك الأخير.. أشد جلبابك. هل نظرت لى وبكيتِ؟

أم تركتنى للقريبات والعيال. لا أذكر شيئا.. هل أجولـة الملح التى حطت على قدميك فى تلك القيالة أمام المدافن هى سر موتك.

ثلاثون عاما يا أمى، أبكى ولا أحد يحس بألمى. أنا ابنك، لماذا تركتنى تخسف بى الحفر ولا أصل - أبدا - الـتلال. تهدهدنى يد " بهيه " ومئات الأيدى تحفر فى جسدى كـرابيج الألم.. صرت لا تقدرين يا بهيه على آلامى، تتـأبى علـى مراهم يديك.

اتركينى للعطش، لا ماء يروى ظمأى. انفلتت الجمجمـة آخذة وضعها الأول. مرتاحة لدفء التراب.. جريت تاركـا الفأس والعظام ذاهبا إلى الطلمبة - الموجودة أول المدافن - أديرها. لم تدر. أضع فى قلبها ماء عكرا من القناية وأديـر. يزيق الحديد؛ قعدت بجوارها تاركا يدى عليها غسلت وجهى من ماء القناية الجارى. رطوبة الماء أغرتنى، فانبطحت على بطنى ومددت فمى. يا رب العباد كم أنت رحيم.

تقابلنى عمتى محاسن كعادتها بوجهها البشوش. تقول :

أجيب غدا؟

قلت : تغديت مع البنّا.

سألت عن المقبرتين وهل أكملت البناء؟.

قلت : فى مرة أخرى نستكمل أعمال المحارة. سألت عن العظام.

قلت : أعدتها إلى جانب المقبرة.

نادت على امرأة ابنها تستعجل الشاى، ثم اقتربت. بجانبى على الحصيرة. تملتنى جيدا.

وقالت : بقالك شهر مجيتش.

: ظروف.

: لونك رايح ليه يا طاهر؟.. انت تعبان؟.

: شوية.

: نفس التعب؟.

وليت وجهى تجاه الأرض الفضاء فى الخـارج. كانـت الشمس قرصا أحمر يسقط وراء البيوت البعيدة.

قالت : حبت لك اتنين كيلو جبنة من أم السعد.

: مابشتغلش اليومين دول يا عمه.

: يعنى البطن هتبطل؟

تحوطنى الشرود وشكل جمجمة أمى يطالعنى. قلت لنفسى من يعرف؟ ربما كانت لجدتى أو عمة أبى أو ثناء..

عادت عمتى تسألنى عن العيال وامرأتى.

قلت : بخير.

قالت : وانت كمان بخير؟

: الحمد لله.

: يا بنى ياما دقت على الراس طبول.

كان كلامها معادا. الناس لا تقدر متاعب الناس.. وأنـى أقود مركبا ولو غفلت لحظة يتحطم. ما ذنب امرأتى. ما ذنب حمادة وشيماء.

قلت : ما ذنبى أنا؟؟

ما أكثر ذنوبنا يا عمتى. كفى عن دق مسامير الحياة فـى نعشى.

نهضت قائلا : أصلى المغرب.

أهرب من كل المتاعب إليك.

كيف أودعت الألم فى جسمى.

فك أسرى يا رحيم.

قالت زنوبه : تدفع معانا فى أكلة سمك.

تحاول أن تبعث الحياة فى عروق الدار. تضحك بلا داع. تستوقف امرأة محمد - ابنها الكبير - سائلة عـن زوجهـا الضائع مع زملائه الحشاشين.

تطلع إلى المقاعد. تدق الباب. فلا يفتح لها ابراهيم. تقول: نايم من العصر. أنت عملت فيه إيه، تبـددت رغبتـى فـى الكلام. سلمت عليهم.

زنوبه تحاول تأخيرى للعشاء قائلة مش مهم تدفع.

قلت : العشاء فى الزقازيق. أشوف أولاد أختى بهيه وأبيت هناك.

اندفعت إلى عمتى.. حملتنى الجبنة والأرز لعرفه. كـأن طحلة تدير وجهها عنى. تنطفئ أنوارها فى قلبـى. يشـملها ضيق النفس.. ومشاجرات ما قبل العشـاء. لهـاث البهـائم العائدة فى غبش المغرب من الغيطان. وراءها أصحابها على حميرهم. صامتون.. متعبون. يرفعـون أيـاديهم بالتحيـة. صوتهم خافت، ذابل كفتيل لمبة جاز فى أماسى الطفولة.

الـــزئبـــق

(مدخل)

- كل ما تظن أنه الحقيقة.. ربما كـان بحـرا مـن سراب.
- هؤلاءس الناس أعرفهم، كلما أمسك بالقلم يفلتون.
- كل ما يدعو للضحك يشدنا إلى البكاء.
- يا خالق الممر أرشدنى لفجوة كى أستريح.
- ربما لأنك تحبهم تظن أنهم شرفاء.
- كدب مساوى ولا صدق منعكش.
- أنتم كاذبون. لكنى أحبكم إذ تفتحون عالما واسـعا للرؤى.
- الحزن - وحده - لا يكفى.
- أنا هكذا.

فتحى عبد التواب

للأمام تغوص أقدامنا فى رمال الحقيقة. نفتح أبوابا للرؤية فلا تنزاح التكهنات.

كان الولد الذى يشبهنى يتحسس كفل الحياة، فتتفتح رغبته دائمة السطو على عنفوان الجسد. لا يلتئم.. تنقصه الحقيقـة فيتعثر فى حجر أملس يشج الرأس مبعثـرا ملايـين النمـل والدهشة. يخرج ملتاعا، أحاوره فى ظلماتى مادا يدى. إليـه يضحك ويتركنى. حين قعد الطاهر على كنبة الأنتريه كادت تنفجر من ثقل العالم الذى حط عليها. لم يـواجهنى صـخبه الرنان - كعادته - إنما حط سحابات داكنة كنست رغبتى فى الكلام، الطواف. دار الكلام تافها عن حال العيال والزوجـة وخالى عرفه وأبنائه؛ والبراغيث التى تأكل الجلد فـى ليـال مظلمة. وهو غير مرتاح للحَك.. غير نائم.. غير صاح.

قلت : دمت لنا يا سيدى القلق. ودامـت الفراشـات الساقطات من ألق الطيران علـى أجنحتهـا دم غادر. قال الطاهر هل لك فى كأسين معتقين من نبيذ حياتى، بدلا من تكهناتك الخاصة عن بشـر من وهم خيالك يحبون؛ قلت : ويغادرون إلـى غير شواطئ. ينكفئون علـى أعتـاب البدايـة؛ محاولين فك طلاسم انهيارهم. ولم أرد.

سكت الولد الذى أحببته، غاصت قدماه فى وحل الطريـق والظلام. الكلاب مسعورة لا تكف عن النباح.

قلت : يا طاهر أنت استطعت أن تعـيش..تقتـنص دفء الزوجة والعيال.

قال : وأنت تزوجت..ما الفرق؟

قلت كبلنى الولد بقيود وقفته لما اندفعت للدفء. للتلاحم.. أرخى حبال التواصل، وتركنى عند بـدء الظـلام والظـلام ظلمة. كأننا مخلوقات زئبقية تستطيل أمامنا مسافات الألـم، فينبعث فى الظلام، فى النكـات السـاخرة، لكـأن الحزن مقيم معنا دائما، نندفع بلا هوادة محـاولين اختصـار المسافات غير مدركين أننا ننفلت حين تسبح بنـا الأحـلام..

ونتمدد على أول الدرب كل صباح. حاولـت السـير رغـم قيودى. لم يندهش الولد. بل وضع فـوق كـاهلى الطـوب والحصى. فى خلواتى يقول هئ، وينسحب ساخرا. أمسـكت بياقته.. كدت أتفل فى وجهه قائلا : لمـاذا تجرجرنـى فـى صحراء تعرف خطواتى ولا تجيب؛ فما رد، إنما فتح أمامى مغارات سوداء، ورؤى كابوسية. قال : أنت فى البدء فاتحد. ولا تسلم ذاتك لدق المسامير. ذاكرتك أول الطريق للهـلاك؛ كنت واضعا يدى أسفل ذقنى غائصا فى تقاطيع الطاهر التى تشبه الولد. واضح أن الطاهر وقع فى فخاخ الدفء والعيال وأفاق هو الآخر على حصير فرش فـوق حصـى وزلـط وحجارة مدببة. أداعب فيه الصبى الذى رافقته دافعا إليه ماء التجلى. أشده من وهدة التقوقع والتساؤل، فتبين منه ابتسـامة هازئة. قال : ماعليك إذا تركتنى ما أنقصـتنى، وإذا مـددت يديك ما نجدتنى. قلت : الدور إياه. قال : أنت تعـرف سـر بلائى أوشكت أيام المرضى على الانتهاء. ضحكت.

كأنه تعاقد مع الإفاقة بانقضاء الأيام. وكل يوم تفر منـى الأيام تاركة أشعة باهتة تضيف إلى ضـباب الـرؤى؛ رؤى مهشمة، أحلاما؛ نواقيس خطر تتأهب لافتراسى. دبيب الشيب يتسحب قطا بريا يفاجئنى صدفة فى المرآة. أنت يا صـديقى الشيب ملأت هوامش النفس. تفتح كل يوم حوارات جديـدة تحت عجلات الحضور والانصراف والتلاميذ على مقاعدهم يكتبون البراءة، يرسمون صورة لوطن تجلى دفعة واحدة.

أنا الواقف فى الطابور لم أزل. لم أتقدم للأمام أو الوراء. فقط أسير فى المكان ناظرا حولى بعدما نزلت زوجتى إلـى النسوة زوجات إخوتى.. وبقيت ندى تنشر شـغبها الـوردى معلنة عن حضور فذ، قائمة بأدوار عدة، كى تلفت انتباهنا - أنا والطاهر - كنا قد صعدنا إلى جبل عال، أشـرفنا علـى الهاوية. متشبثين بندى وحمادة وشيماء معلنين إفلاسنا.

فى تلك الأوقات دخنت سيجارة والطاهر رفض التدخين، رغم أنه يجارينى أحيانا.

لا أعرف للآن سر شراهتى للسجائر. كنت إلـى وقـت قريب أدخن المعسل والطاهر يشاركنى. كأنه عشق القرويين أمثالنا. ربما يرجع السر إلـى اكتشـافى الأخيـر. كثـرت التكهنات. إذا كان التحليل إيجابيا فلا ضير. أهلا سيدى الفناء الجميل. قال صديقى الشاعر لآخر تجاوز الثمانين (جميل هو الموت لك) ولم يمت؛ وقد تجاوز - الآن - التسعين.

سأل الطاهر عن مشروعاتى : سكت ولمن أقل أننى أخطـط بطريقة محكمة. رؤية ساخرة تشـكل بحميميـة نهايتى المتوقعة.

أوعز الطاهر لى ونحن فى انتظار القطار ليلا كى يعـود إلى شبرا ومنها إلى مسطرد قائلا : أكتب حكايتى. قلت : لا أكتب حكايات أحد.. فقط تنفتح الرؤى الغائمة على عالم أكثر غيوما قاحلا، فجا لا أرتاح إليه. قال : عالمنا واحـد، فـلا تتفلسف خذ طينة بينة وشكلها.. تذكرت الطير الموزع علـى جبلين، مختلط اللحم والدم والملامح. إذا ناديت. لـن يـأتى سعيا. كان متعبا، ولم يطل ولم أناقش حتـى طـواه الليـل والقطار فى المساء من ذلك اليوم.. كتبـت أوراقـا كثيـرة ومزقتها عن بدء الولد.. ضياعه فى معمـل التحاليـل بـين تكهنات وآراء متناقضة.. حوادث صغيرة تجثم على الروح. ولم أفلح فى خلق علاقات واضحة.

أدور فى أركان غرفتى ناظرا تارة للبعيد وأخرى لهالات دخان سجائرى. أدخل مع أنفاس السـجائر إلـى أعمـاقى، شاعرا أن خنجرا ينتظر - منى - إغفاءة أو بدونها سـيلتحم غائصا، مسربا سمه اللذيذ إلى الجسد، فيرتخى تماما.. تماما. يمسك بالصغيرة ندى. يودع أمه وزوجته وإخوتـه وآخـر خيوط الحياة.

فى المرة التى لم يستطع تحديد رقمها. اسـتقرت البدايـة آخذة مسوح الحقيقة، لابسة نمنمات الوجوه التى ترغب فـى الانعتاق من ظلمة النسيان.

كان الطاهر ساحبا خيط البداية. يدور ويلف، يخبط رأسه فى حوائط صلبة لا ترتاح إلى دق المسـامير. فلمـا تعـب أسلمنى طرف الخيط : وفر؛ فى قطار العاشرة والثلث لـيلا إلى صقيع حياته؛ موقنا أنى لن أفلت الخيط. لذلك لم يحـاول مجادلتى. إنما أوقفنى أمامه فـى غرفتـى؛ قلـت أتملـى.. فتمليت.. إذا هم ينهضون فاتحين أعينهم صوب الوراء تارة وصوب التخوم البعيدة. كأن لمعانا يشبه البريق، يتراوح بين السطوع والخفوت. يرمينى أحـدهم بنظـرة قاسـية كأنـه يتوعدنى. ينشغل الباقون.

بعدما انشغلت بإشعال سيجارتى، كانوا قد اشـتبكوا مـع بعضهم فى عراك محتد. رمتنى زنوبه بنظـرة ذات معنـى فارتبكت لحظة ثم تشاغلت.

أمسكت هى خيوط اللعبة واختفت.

أخذو يهمهمون عـن اختفائهـا، ويطـالبون بضـرورة حضورها كى تكتمل الحكاية. ولأنى كنت أدرك - بحكمـة باطنية - أنها اختفت كى تفسد عليهم مجلسهم. وتشغلهم مـن جديد.. فقد وليت وجهى تجاه ظلام بدأ يناديني تركتهم فـى غرفتى على حالهم. وتركت الأوراق ملقاة بلا نظام. قلمـى على كوميدينو لبنى مغطى بزجاج سميك. تبين مـن تحتـه زهورا باهتا، ومن فوقه طفاية وولاعة وأعقاب سجائر.

فـــــاتحـة

بهيه مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم.. رقيتك من عين عمتك محاسـن ومن عين زنوبه بنت قدريه ومن عين مرزوق ابن عريفـة، ومن عين عبد التواب ابن حبيبة، ومن عينى، وعين كل اللى شافوك ولا صلوش على النبى.

ولما كان الولد طاهر قد استكان تماما لتمليس يدى علـى ظهره. صعب على الولد وانحدرت دمعة مـن عينـى لمـا أخبرنى بأفاعيل زنوبه. تضع له الجبن القديم وتخص أولادها محمد وإبراهيم ومصطفى بالقشدة والطبيخ. مهـوش ابنهـا. وددت لو يعيش هنا مع وجيه وفتحى وناجى وحبيبة ومحمد.

لو لم يكن راتب زوجى صغيرا يسلمه لى آخذا قدر دخانه اللف ويضعنى فى حيص بيص. أنت ولدى يا طاهر سـبب قهرى وحزنى. كلما أنظر لعينيك أذكر أمى فتحيـه عنـدما تركتْك ابن عامين تحاول فى الكلام. عاد الطاهر فارتكن إلى المساند فى آخر الكنبة بعدما أحرق العروسة الورق.. شهقتُ وعطستُ، واحمرت عينى أدمعت بعدما رقيته. قلت للشـيخ عبد التواب زوجى : الولد محسود. رد فتحى مـن الصـالة قائلا : يتحسد على إيه يا امه.

تضايق الطاهر فقام إليه، يهذران معا. ولدت فتحى قبل أن تضع أمى الطاهر بستة أشهر.. كنت تخافين يا أمى من خلفة البنات فلم يتبق غيرى وماتت ثناء ورزقك الله بأولاد كثيرين ماتوا صغارا وتبقى عرفه والطاهر.

التفت إلى عبد التواب قائلة : همه عايزين منه إيـه. كـان الشيخ مشغولا بلف سجائره وإحكام البفرة على الدخان بمزج ريقه عليها. لم يلتفت.

قلت : والنبى أطلع مصارينها.

قام وتوجه إلى الحمام مشعلا سيجارته. تركنـى للحـائط أهرى فى نفسى. سكن صوت فتحـى والطـاهر. رقصـت الكهرباء فى اللمبة، وجدتنى أتطلع إلى البقع المنهـارة مـن محارة الحائط، وأشكى لرب العباد ظلم الناس للنـاس. عـاد عبده من الحمام. تطلع لوجهى المغتم. هدهد حزنى وقـال : لله فى خلقه شئون. فقلت بحزن : أبويه واتجوز.. وزنوبـه وبنت كلب. والطاهر له رب اسمه الكريم.

الطاهر

أودة مظلمة، يدخلها ضوء النهار، يشعشع ظلمتها قليلا. والشيخ نبوى يفتح كتابا قديما. يقلب صفحاته. يشرب قهوته بتأن، ثم يسأل أبى عن الشهر الذى ولدت فيه.. ينقل النظر بينى وبين أبى. أشباح تتلوى مع بخور يتصاعد إلى عروق الخشب تحت سقف واطئ، ينام فوق الأودة القائمة فى آخر الدار بطاروط.. فجأة أمسك بكتفى، فأصابنى الخوف. قال : بتعملها على نفسك بالليل؟. لم أرد. أجاب أبى: لا. قال: نجمه شين..بس مفيهوش حاجة..بيدلّع شوية.

أشار الشيخ نبوى إلى أبى فهز رأسه ووضع يده على شعرى، فى الدار حاولت الاحتماء بيدى من هول طرقعة الأكف وشلاليت أبى. زنوبه تضحك.. وإبراهيم يصرخ فى حجرها. قال أبى : يا ابن الكلب. معندكش حاجة وبتضحك عليا.

ولم أكن قد اشتكيت من شئ، فقط كنت أصحو من النوم صارخا من ثعابين تزحف حولى.

رددت باكيا.. الله يخرب بيته الشيخ نبوى.

مرزوق

أعتقد أنه لن يحضر أحد من ولدى فتحيه مـوتى. أعتقـد أيضا أننى حاولت أن أفعل ما يجب.

كما أنه من الواجب أن أوضح موقفى بأن الحيـاة كانـت أكثر رحابة مما كنت أظن. لكنى آثرت أن أرى كـل شـئ بوضوح. ولم أتمكن. مثلا يوم ذهبت لحضور حفل الـريس. كنت أول من طلع السلالم الخشبية. كان عرفه صغيرا.. قبل النكسة بأعوام قلائل. تطلعـت إلـى الهالـة الباديـة علـى الحضور. ياقات منشاة يتوسطها الريس فـى بدلـة صـيفية بيضاء بنصف كم. وهز يدى، أحسست أنى أنحنـى سـعيدا غير قادر على رفع عينى لهالات الشمس التى تسلطت على وجهه المبتسم.

عندما هز يدى كصديق حميم، يجلـس بجـوارى علـى المصطبة فى المغارب، ويقول تسلم إيـدك لمصـر، دارت عينى على كل الوجوه. هممت بالنزول، فرأيته - هو - فقط من استحوذ على الشمس ومنحنى دفء يده أثنـاء تماسـك يدينا.

واضح أننى مأخوذ بذلك اليوم. أندهش للحظـات وأقسـم مائة قسم أنى كدت أبكى. تقول بهيه ابنتـى.. أنـت طلقـت زنوبه بهذه الأقسام الباطلة مرات. يبث الشيخ عبـد التـواب زوجها رأى الدين فى كثرة الأقسام ولو صحيحة فى وضوح أشعرنى بخجل. نويت ألا أتسرع. ولما كانت علـى أقسـاما كثيرة تحتاج إلى التكفير عنها قلت أصوم.. أصبحت أصـوم تلك الأعوام التى أعتقد أنها أعوامى الأخيرة شـهور رجـب وشعبان ورمضان بلا تعب. لما جاء عرفه بامرأتـه نـوال وولده السيد وابنته فتحيه تحدث عن مسجده المجاور لسكنه.. الدروس الدينية.. جماعة التبليغ. يقول كثيرون لا يعرفـون أصول دينهم. تمليته جيدا.. كانت الشعيرات تتدلى من ذقنـه وبقية وجهه صحراء جرداء (أعلم أنه جرودى) فلماذا يصر على إظهار ذلك بفجاجة. خجلت لبعض الوقت حين انتقدنى. شتمته فى النهاية معلنا له أننى طوال عمرى أصلى الفـرض فى وقته. هل نسى أنى اخترت أن أخدم يومـا فـى مسـجد بالزقازيق تاركا أرضى وخيرى. غير أنه كان وقحا فأوضح أنه لو لم يعطنى الرجل أجرا لما ذهبت هاربـا مـن تعـب الأرض. ثم تأوه عرفه ناظرا إلى خارج الدار وقال ليتك لـم

تفعل. حضرتنى صورة زنوبه إنه يقصدها. أصارت سيرتها على كل لسان؟.. ربما هو أيضا كان واحـدا ممـن نـادتهم زنوبه فخر تحت ساقيها. يا عرفه أنت ولدى وأنا أبوك.. من صغرك تفلح معى الأرض أو بدلا عنى. لكن من يعرف؟!!!

ذات مساء يا عرفه طوحت فى وجهـك الطبـيخ. قالـت زنوبه لك : بس أنا لأ.. بحثت عن حججك وقلت : مديونـة وبتجرسنى.

أتراها سارت أمامك ممتلئة رابية، يهتز ردفاهـا تحـت جلبابها الأصفر الخفيف.

تصعد السلم فتفضح الشمس ما بالجلباب.. يشف الجسـد، فتراها بلا لباس.. ترى ردفين متكورين.. تطلـع خطـوة.. بتؤدة. كأنها تتعمد إظهار حركاتها كى تشف الشـمس أكثـر عن جسد طرى يتمايل. فتنتفض.

أنا رأيتها كثيرا هكذا.

فى المرة الأولى إنتصبت وانتفضت حواسـى الخاملـة، طلعت السلم وراءها درجة.. درجة. كانت تخـايلنى هيئـة فتحيه طالعة نفس السلم باحتشام فأزيحها للـوراء. تسـتدير زنوبه ملتفتة لى، فتتملكنى الرغبة.. أطوق خصرها. تنزلـق يدى إلى الردفين المكتنزين، فأغوص فى الليونة المفرطـة.. أدفع باب (المقعد) أفترش - على عجل - هدوم العيال على الأرض، تضحك.. أخلع سروالى، أنحنـى رافعـا جلبابهـا فتنكشف على بسهولها وهضابها ونتوءاتها الطريـة. أنثـى ممتلئة بكل شئ. تملؤنى بفحيح الرغبة والنشوة.. أهركها بكل قوتى فتلف ساقيها حولى.. أشرف على هاويتى، أسقط مـن فوق تلالها إلى حفر عمرى. بينما تفـح - هـى - متلويـة تجذبنى. ولا أتمكن من طلوعها ثانية، أدرك - الآن - أنهـا مازالت تفح كأفعى. أوراقى تتساقط حواليها غير قادرة على تغطية المغارة العميقة.

شمسى تأفل يا فتحيه. تغيب وراء تلال زنوبـه. عيـدان القطن تقصر عاما بعد عام. بالكاد نضغط الأكيـاس بثـانى جَمْعَة. كنت أورد إلى الجمعية أبيض القطن. عشر جنيهـات حمراء أعطاها لى الريس جمال ظلت فى السحارة أعوامـا حتى أدخلتها فتحيه فى إعداد بهيه للزواج. أنظر الشهادة التى اختفى بريق حوافها المذهبة. تتوقف عينـى بـين فراغـات الحروف. أنفض الغبار.. أقرأ إسمى باحثـا عـن ملامحـى القديمة. ودفء اليد التى سلمتنى الشهادة وسكنت التراب.

فتحى

تلال من الرغبة تعترك بأعماقنا، إذ تميل كل يوم شمسنا. ربما تنحرف الأرجل إلى ضلال السعى.. تنبح الحيـاة فـى العروق..نتسحب على أطراف الأصـابع نحـو الحجـرات المقفلة. نكسر الأقفال فلا نجد شيئا. ربما نجد مـرآة كبيـرة تغطى الجدران. تبرز خيالاتنا المعوجة المفلطحـة متشـابكة متعاركة. تصفعنا الفجاجة أو يصيبنا الإعياء والصداع. نولى الوجه صوب الباب متعقبين أطيافا باهتـة وخيـوط ضـوء واهنة. لعلها تسحبنا لأول الطريق.

عرفه

بعد العشاء أوقفنى السيد ابن عمتى - وكنت مـتعجلا أو ربما أتوقع شيئا ما - على رأس شارعنا.

لماذا يسأل عن ظروفى وهو يعلـم أنـى مغطـوط فـى الأرض كل يوم. تراه يغيظنى بعدما صار ... لـو نجحـت كنت الآن معه.

حفظت عشرة أجزاء ولم أفلح. كانت اللجنة قاسية، أبـى أوصى فراش المعهد ليوصى بدوره اللجنة. أية لجنة؟! وضع كوب شاى واحد - وهى عضـوين - فتعازمـا. وحتـى لا يحرجا من بعضهما. جعلانى أشربه أنا.

وأبتلع معه رسوبى.

منك لله يا فراش الوكسة.

صرت - الآن - يا سيد فى الكلية.

سنوات وأنا هكذا.

هل تعلم أنى تسكعت فى شوارع طحلة بلا هدف؟.

هل تعلم أنى كبرت إلى الحد الذى ...

أنت بالتأكيد ترى هناك أحلى البنـات. فـى الشـوارع. الأتوبيسات. الكلية.

وسيم أنت يا سيد.

لما لاحظ شرودى، ردودى القصـيرة، تغيـر وجهـى، تركنى.

اندفعت للدار، فإذا هى مقفولة بالترباس.

كما توقعت.

رغم أن صلاة العشاء انقضت منذ قليل.

دققت أكثر.

سمعت أبى يقول غاضبا : مش هتبيت فيها.

بدأت المتاعب.

منذ أكثر من عشر سنوات وعلاقتى محددة بزنوبه.

رفعت عليها (الشعبة) أكثر من مرة للتخويـف حتـى لا تظننى طيرا يسهل أكله كالطاهر.

قلت له عندما كبر : كن شديدا تخافك.

كنت كبيرا متجاوزا عشر سنوات عند دخولها البيت أول مرة.

(كانت وراءه وخلفهما سيدة واحدة تحمل سبتا واحدا بـلا صوت.. دم أمى فى التراب لم يبرد.. فى أيامها الأولى كانت هادئة، مطيعة لأبى حتى أنجبت محمد، بدأت تقبل وترفض.. تكرر الإنجاب وتكورت قبضة يدها). قعـدت أمـام البـاب مخنوقا كالزقة الضيقة التى تربطنا بالشـارع.. مـاذا أفعـل والظلام يزداد والقلق لا يبرح النفس.

تراها حكت له بالتفصيل؟!

بهيه

ما أقسى تلك البلدة وأقسى قلوب أهلها. ينشبون أظـافرهم فى أعناق بعضهم !! أليسوا أهلا وجيرانا؟.. وأنت يـا أبـى ألست إبنتك كما أن الطاهر إبنك. لماذا كـل تلـك الجفـوة. مازال الخوف يهزنى حين أتذكر لطمتك المفاجئة ذات ليلـة على العشاء فوق خد أمى، حين ضحكتُ على قولها : إخيـه على أمك. أمك التى تدخر لك من أكلها فى الدار التى تسكنها وحدها وأنت تذهب حاملا من طعامنا إليها كل ليلة حتى تلك الليلة.. أرسلت جدتى - ولم تكن أمـى تعـرف - حمامـة ملفوفة بالقماش، قالت لأمى : أمانة.. إديها لمرزوق، وفسدت الأمانة فى حر الصيف حتى عدت يا أبى، وأمسكت بالحمامة الفاسدة وضحكت أمى وقالت ما قالت. لا أنسـى إلـى الآن ضيق عينيك وارتفاع حاجبيك وسقوط أمى الطويـل حـين لطمتها. ليلتها نطت منى المياه رغما عنى.

قالت إمرأة وجيه - ابنى - بعد عودتها من طحلـة : أن عائلة البشاروة قامت بالسكاكين على عائلة السـود. مزقـوا لحمهم وسقط قتلى وأعداد جرحى لا تحصى.. من المؤكد أن العيال الصغار بكوا على أمهاتهم اللاتى تعرين رغما عـنهن بأيدى نسوان البشاروة - سألتُ امرأة إبنى - وأشعلوا النار؟. هزت رأسها.. قلت : نار القلوب أشد. صـارت النـاس لا تحتمل بعضها. حتى ابنى فنحى كبر، ولم يعد يحتمل كلامى. صار الولد فى الثانوية.. إخيه على ده زمن.

الطاهر

قال فتحى : الغش حرام.

قلت : لأ.. حلال.

مادام الموت من فوهة (الفرد) سينطلق - فى صـدرى - إذا رسبت.. ذاكرت كثيرا رأسى كالمنخل تسقط من فتحاتهـا الكثيرة ما تبقى من كلام.

رأسى طلاحونة يحركها الخوف.

: مبروك.. جبت كام؟.

: نجحت.

أعاد فتحى السؤال. وأعدت الجواب بتأكيد وأمان. قال أنه أحضر كتب أولى إعدادى. لم أهـتم شـعرت برغبـة فـى الانطلاق، بين السيارات والناس فى شوارع الزقازيق.

ركبت الأتوبيس (الدايرى) الأصـفر،ذاهبا إلـى خـالتى بطاروط أخبرها بنجاحى. وخلاصى من الإبتدائية. ملعـون التعليم والمدرسين، وطابور الصباح.

أعطتنى قطعة معدنية بعشرة قروش. واحتضنتنى بشدة ثم قالت : روح لخالك. ذهبت إليه، فأعطانى ما تيسر بإهمـال، أو ربما بحزن على فشل أبنائه فى التعليم.قضيت ليلة مع عبد الباسط، وكان عبد السلام قد تطوع فى الجيش بعد الاعدادية.

أغيب.. وأعود إلى طحلة.

فلا أجد من يرحب بعودتى.

يقول عرفه أخى بإهمال مشيحا برأسه : كنت صايع فين. ثم يمسك حبال البهائم ويركب الحمارة ذاهبا للغيط.

ربما يبش أبى أو ينشغل بلف حبـال التيـل للبهـائم أو إصلاح الحصر أو الغبيط بمسلة كبيرة.

عندما دخلت الزقة التى تربط بابنا بالشارع عائدا من عند خالتى. كان أبى عند الباب منهمكا فى ترقيع جوال.. رميـت عليه السلام. لم يرد. تأهبت لخطر قادم. ولما لم يهم بفعلـه. قصدت الزير لأشرب، مستطعما المياه الباردة فى حر صيف كاتم. طار الكوز من فمى وارتطمت رأسـى بـالزير إثـر ضربتين من كف أبى طرقعتا على قفاى، تلاهما شلوت فـى مؤخرتى. وانصرف.

طلعت إلى (المقعد) وبكيت.

فى الصباح رافقته ساحبا البهائم وكـان ورائـى علـى الحمارة. قال : كنت بايت فين ياصايع؟.

لم أرد.

وددت لو أربط الجاموسة والبقرة أو أتركهما أمامه، وأفر منه للأبد.

قالت زنوبه بعدما ضربنى بالأمس : يعنى هيه أول مـرة يصيع.

لا أعرف هل خلصت الكلمات ولم يتبق سـوى صـايع وضايع لوصفى.

اختفيت من أمامه وقت الظهر بحجة إحضار الغداء.

وجه عرفه أحمر، يطق من عينيه شرر مثل عينى أبـى ليلة أخرج لى (الفرد).

(الشعبة) فى يد عرفه ويدفع الباب بكتفه، وصوت زنوبـه يأتى من وراء الباب لاعنا طحلة والذى أتـى بهـا لطحلـة واليوم الذى رأته فيه؛ الباب يهتز بينهما.

وقفت عند الباب محاولا الفهم.

عرفه يحاول ضربها. وهى تنعته بأقبح الشتائم.

هو يكبرنى بثمانى سنوات. ويستطيع تلقينها درسا، بالعصى.. صباحا ذهب يشتغل مع الجيران - بدل - لجنى القطن.

عاد لم يجد غداء معدا ولا زنوبه. أكل الجبنة والمش بالخبز الناشف على عجل. عند عودته للغيط رآها قاعدة على مصطبة أبو شعبان البقال تأكل الحلويات المسكرة. عند رؤيتها لعرفه ولت هاربة. طلب البقال من عرفه المتأخر من ديون زنوبه. سحبت حتى الآن بأكثر من عشرة جنيهات.

على العشاء. كان أبى جالسا فى الوسط حول طبلية مبقعة غير مغسولة فوقها طبق من البطاطس به قطع عائمة فى ماء الطبيخ. ومحمد وإبراهيم يسرحان باللقمة حول قطع البطاطس المتبقية، ينز من بين أصابعهم السائل. أبى يكسر الرغيف الناشف إلى لقيمات. يمد يده فى طبق مخلل به قشر برتقال وجبنة قديمة، يسرح داخلها وحولها دود سريع الحركة. يطوى السريس الأخضر فى فمه.

زنوبه جالسة عند عتبة الدار. واضعة رأسها بين يديها؛ كنت قد أكلت عند عمتى محاسن قبل قليل، دعانى أبى للطعام: قرب اطفح. رفضت.

قال : أنت حر؟.

كان عرفه منهمكا فى حشو فمـه بـأى شـئ. تتلاحـق اللقيمات.

دخلت زنوبه فى البكاء دفعة واحدة، التفت عرفه إليها.

قالت بصوت عال : إن كنت كبرت أبوك يجوزك.. بس أنـا لأ.

اصفر وجه عرفه، واتسع بياض عينيه.

بينما توقفت اللقمة فى فم أبى.

أعاد عرفه ما قاله أبو شعبان البقال عن ديـون زنوبـه. اختلطت الحجج مثلما تعاركا ظهرا. أبى صامت ينقل بينهما عينيه.

ثم قذف فجأة بطِيق ماء البطاطس فى وجه عرفه.

عرفه

ذهبت إلى بهيه أختى فى الزقازيق، ماشيا من طحلة ولـم تتعب قدمى، حاملا بقايا الطبيخ على صدرى. لا للبكاء على صدرها كالعيال. بل هربا من صورتى الباهتة، وقبضته.

عشرون عاما ولا شئ.

قالت أختى : لا تغضب هى وسخة وبنـت كلـب، مثلـك سيكشف سرها. هى تسرق وتسحب شكك وأكثر من ذلك.. وأبوك يعرف. أنت ياعرفـه بهـيم، مثلك يجب أن يسافر إلى العـراق أو أى بلـد. تعمل وتتعب وترجع بالمال.. تتزوج ويكون لك أولادا. لم تعد الأرض تحتمل كـى تفـتح لـك ولغيرك بيتا. سترث فى النهاية بضع قراريط لا تسمن فرخة. لن تترك المرأة فرصة للإمسـاك بخير الأرض. سافر يا ولد.

دخل كلامها مخى. وجيوبى انتفضت معلنة براءتها مـن أى مليم. وهو لن يعطينى. قالت لى : اشـتغل ياولـد مـع أولادى، وجيه وفتحى وناجى فى حدادة التسليح، ووفر أجرة السفر. اعترض الشيخ عبد التواب. قـال : ابـن الأرض لا ينفع إلا للأرض. كالسمك يموت إذا خرج من الماء. ضحكت وقلت : ياعم الشيخ إنهم يسافرون ويعـودون فـى جيـوبهم المال، يشترون الأرض ويبنون البيـوت ولـم أقـل بـأنهم يجلسون أيضا على المقاهى. ويتـأخرون. ويصـيعون فـى الشوارع ثم يستأجرون من يفلحها.

أسبوع فى حديد التسليح أحاول ثنى الأسياخ وتقطيعها ولم أفلح.

خبير أنا عندما أضع السدد والعروق، فوق الدور الجديدة فى طحلة مع الرفاق.

أسبوع وحضر أبى. تحدث مع زوج أختى وأختى. عبـر عن نيته فى تزويجى فى القطن القادم.

قلت : هسافر.

قال : إضرب راسك فى أتخن حيطة. وقـابلنى إذا فلحت.

قهرنى الحديد، ولانت مقاومتى.

فى صباح يوم جديد.

عدت عودة الخائبين.

رضيت بالزواج من ابنة عمتى، وكدت أطير.

اختلف أبى مع أخته كعادته، فزوجنى من نـوال قريبـة زنوبه.

لماذا كالنعاج نستسلم للآخرين؟؟!

مرزوق

لم تفرح يا فتحيه بالشهادة المذهبة الحواف. عندما نزلـت من فوق ظهر الحمارة طائرا إليك كى أحضنك، يعمر جيبى عشر جنيهات حمراء. وليت وجهك إلى ظلام المندرة باكية. اهتزت فرحتى، اندلق جردل ماء وسخ على شالى الأبـيض حين أخبرتنى بأن ثناء فى المستشفى.

: سايبها حلوة؟!!

: مسكت بطنها ووقعت فى الغيط.

كانت يمامة تسحب البهائم طائرة بهم - إلى الغيط - بدلا منى. فى الصباح دعت لى وقالت : هتجيب لـى إيـه مـن بردين؟

ماتت ثناء.. تسلمتها فى جلبابها المنقط بدوائر حمراء.

رمت فتحيه الطاهر الرضيع على الأرض. تسمرتُ مكانى حين برز الترولى. من فوقه ملاءة خضراء باهتة تغطى الوجه المورد.. العيون شبه مغمضة. شعرها الطويـل تكـوم فـى تربيعة بيضاء ارتخت حول جـانبى الوجـه.. وجـوه بـلا ابتسامة.. أذرع.. سيقان.. أياد تقبض على الرمـل. تصـرخ

دفعة واحدة وبعدها الرماد.. بالرماد الخارج من الكانون تلعب ثناء. وسط الدار تملأ الزير بالماء. يرتفع جلبابها الطويل عن ساقين ممتلئين. تضرب بقدمها الأرض ثم تطلع إلـى سـطح الدار وتعود بكيزان الذرة. تفرفط حبـات للـدجاج. يرفـرف بأجنحته ويتقافز مخلفا بهجة حلوة فتضحك ثناء.

ابتعد الترولى. ارتمت فتحيه على بلاط المستشفى تلطـم وجهها وتتعلق بالترولى. نزلت دمعـة - رغمـا عنـى - ليمامتى الخضراء.

انفجرت فتحيـه بصـراخ متـوحش، كـدت ألطمهـا.. هتفضحينا.

يجب أن يتم كل شئ فى هدوء.. هكذا ألملم البقايـا مـن هناك، خوذة مازالت محبوكة على رأس الشـاويش زيـنهم، انغرس كتفه فى الرمال.. بيادة بداخلها ساق، جسد الشاويش مكتمل.. عيناه مفتوحتان على اتساع.. هـل تتفجـر الأرض بالماء.. بالألغام.. بالمدافع القاتلة.. سماء تمطرنا بـالموت.. سكون يعقب كل الأشياء، وهواء فاتر يبدد الرائحـة. لمـاذا تنسحب روحى رويدا رويدا مع ملابسـها.. شبشـبها أبـو وردة.. هكذا فى كيس باهت لملمى معى..

فتحيه صابر يا زوجتى.. أنا حبيبك و رجاك.. أحببتك منذ رأيتك.. انطبعت فى القلب ملامح سمرتك الدافئـة.. فتحـت معى أبوابا ووقعت معى فى حفر. هممت ممسكة بيدى لأول الطريق.

لماذا تتركينى الآن للهلاك؟؟؟

المشيعون كثيرون يدبون بخطوهم الرتيب إلى المدافن وأنا بجوارك سائرا أنظر للنعش الذى احتواك وأكتـاف الرجـال تتسابق.

أربعون يوما.

وانفتحت طاقة مظلمة كى تلتهم الجسد الهابط، بتوق إلـى هناك حيث لا يعرف مرزوق متى الموعد والميعاد؟؟

لماذا لمن أشتمك أو أضربك حين جئت لى بالغـداء بعـد يومين لرحيل ثناء. واعترفت بوقوفك على القنايـة بجـوار المدافن، تبكين ثناء.

صارت اللقيمات مرة فى حلقى. حطت يمامـة خضـراء على القلب رفت بجناحيها وطارت عائدة إلى هناك. أخـذتك فى حضنى.. ربت على كتفك قائلا : مات مننا كتيـر يـا أم عرفه. كلهم فى الجنة.. واختنقت بالكلمات.

قلت ضاحكا فيما بعد : لو مقمتيش هتجوز.

كنت على فراشك أشعر الآن أنك أكبر منى ويغشانى يقين بأنك لن تقومى نافضة أجولة الملح التى حطت على رجليـك - بسبب وقوفك - أمام المقبرة.. تحاملى يا فتحيه. الجارات يزرنك ثم يخرجن فى أعينهن معنى الوداع.. خفوت صوتك، يتلقفنى فى الليل بئر عميق مظلم على قاعه تتربص بى أفعى تفح؛ أفيق مذعورا.. يا فتحيه أربعون يوما فقـط وتأخـذك الغالية إلى جوارها.. ترف بجناحيها مخلفة ضبابا وعمـى، وخطى متثاقلة.

ثناء تعد الركوبة، واضعة البردعة على ظهر الحمـارة، تربط الحزام حول البطن ثم تناولنى طرف اللجام.

فتحيه تضحك وتوزع العيال بيننا.. عرفه كبر يذهب معك إلى الغيط.. ثناء لى تحمل الطاهر وتسـاعدنى فـى شـغل الدار.. البنت بقت عروسة.

أسحب البهائم مفارقا البلدة، ناظرا إلـى الـدور الطينيـة المتساندة حتى أخاص من الناس والضجر.. وجوه صـفراء من المرض، آخذ طريق المدافن حتى أنحرف على شـمالى تتوقف الحمارة فأنتبه على غيطنا.

أرخى الحبل للبقرة والجاموسة. تبحث يدى عن الشرشرة المخبأة. أحش البرسيم الطرى ناقلا للبهائم أولا بـأول. ثـم أكوم كومة كبيرة ورائى للعشاء. تطلق البهائم خوارا مبهما، على الحد الفاصل بين أرضى وأرض أبو اسـماعين أقعـد متمليا الشمس التى تغيب.. تنـام وراء الأشـجار البعيـدة. أخبرتنى فتحيه قبل عشرين عاما - فى نفس المكان - بعدما تطلعت إلى عينى فى صفرة المغيب. بأن أباها مات مسموما. وأنها لم تقل لى ذلك من قبل. رمت بنظرها للغيطـان مـن حولنا وأكملت : بسبب الأرض. رأيت فى تقاطيع وجهها ألما قديما. تحشرج صوتها. مغمغمة، ضممتها. مسـحت دمـوع عينيها قلت : أنا أبوك وأخوك يا بت.

أحست بدفئى فاستكانت. سكتت قليلا وسكت.

قامت إلى الجاموسة وفكت حبلهـا. عـدنا علـى ظهـر الحمارة.

فى الليل خلعت عنها كل ملابسها. ضممتها بقـوة، كـأن أسى قديما يسحب روحها إلى البعيد، وأنـا ألـوك تفاصـيل جسدها فلا تنتفض. أتساءل أين ذهبت رغبتـك يـا فتحيـه. ألست رجلك؟. تقول حين التداخل وأنا باذل كل مـائى كـى أغرق شقوقها : أه.. يا أبى. طعم اليتم مر.

عدت بها يوما ولم تناقشنى حماتى فى كلمة كأنها تقول لى : خذ امرأتك. كفانا ما بنا. جئنا من طاروط بلدتك يا فتحيـه إلى طحلة نتكلم هازئين من عقولنا المقفلة التى تغضب لأتفه الأسباب. هدمنا حوائط تحاول فصلنا. كـدت تـرتمين فـى حضنى - ونحن على أول الطريق - متعبة تقـولين. أخـى يشتغل عند الناس. قراريط أبى القليلة لا تكفى. لا تتركنى يا مرزوق. يومها أغلق أبى الباب وقال : عد بها. هل أذنت لك بإرجاعها. لم يقهرنى رفضه لنا واحتويتك.

بكيتِ.

قلت لك : لو نموت، نموت معا.

استأجرت دارا.. نمت فى حضنى.

حضنك شلال من حنان يمحو التعـب. أعـود فتنـزعين أشواكى ومتاعبى. وتلعب بهيه حولنا.

بهيه مرزوق

أبكى على أمى. أم أبكى عليك يا أبى.

اليوم موسم. من الأمس أنتظر دخولك على دافعا الفـرح إلى قلبى. تهدهد حزنى وتمسح دمعة على فراق أمى، كانت تُحمل معك خرجىْ الحمارة بالخيرات. أو كنت ترسلها قائلا : شوفى أهلك بالمرة.

أه.. يا أبى.

اليوم صرت يتيمة حقا.

فتحى

ربما تكون صلابة أمى وجفاف المعاملة بيننـا هـو مـا دفعنى مرارا إلى ترك بيتنا فى الزقازيق والهـرب إلـى أى مكان. ولم أعرف أنها ستبكى وحدها بسبب ذلك

لأننى بعد ست سنوات. حين سافرت إلى أسوان لاستكمال تعليمى بإحدى معاهدها.

كتبت رسالة.

عن الولد الذى قيدنى وسط حديقـة عامـة أمـام مبنـى المحافظة جعلنى أنظر للبواخر الرابضة فى النيل وهى تضج بالسياح والرقص على موسيقى صاخبة، تصاحب الأجسـاد الراغبة فى المرح والدوران حول بعضـها نـاظرة لجمـال السيقان. أعواد الأجنبيات النحيفات تطلق الذاكرة إلـى بـلاد الثلج والشتاء والسفر أو تفتح فى النفوس رغبة متلهفة للعناق والمضاجعة التى يحيل دون وقوعها رجال أمن البـواخر أو الفنادق.. هكذا أخبرنى صديقى الأسوانى مصطفى إدريـس (والعهدة على القائل) كان مصطفى بالنسبة لى حضنا وأمنـا من سخط المدينة.. راح إلى الأقصـر واشـتغل بفنادقهـا..

صرت لا أراه إلا لماما وأنا هنا ينفرد بى الولد الذى شـد - على مهل - حبال الذاكرة وملأنى برغبـة حميمـة أن أرى إخوتى، فالليلة موسم. هم الآن حول الطبليـة، أبـى يـوزع عليهم الدجاجة التى ربتها أمى على سطح بيتنا، وطهتها ثـم حمرتها ووضعتها أمام أبى قائلة : ياراجل كده تضحك على نفسك. فين منابك؟. فيقول : بس العيال تاكل.

لماذا كتبت هذه الرسالة فى تلك الليلة؟ لا أعـرف وفـى النهاية أكلت سندوتشاتى وتمشيت فى المدينة أنظر الناس فى شارع السوق كأنه شارع البوستة فى الزقازيق وقت رمضان ملئ بالبازارات ومحلات العطارة ورائحـة البخـور تميـز الشارع. أبناء البلد فى أعينهم حماس، خطواتهم واثقة وثابة. يدعون السواح للمشاهدة وعيون الغرباء تدور كأنها تبحـث عن شئ مفقود؛ كانوا جميعا ممتلئين بالحياة إلا أنا.

لا أعلم أن أمى ستبكى بعد سماع رسالتى من أبى. مـع سندوتشات الفول والطعمية ولم تقرب الطعام فـى الموسـم التالى. منتصف شعبان.

ذلك الحنان الدفاق فى قلب أمى كان دائمـا يختبـئ وراء صلابة وجهها.

تمنحنا دفأها بالقطارة. ربما لأنها تولت أمرنا صغارا حين اشتغل أبى فى مسجد (بالطالبية) وكنا بطاروط. كيف تـدعو علينا بالموت ونحن أبناؤها. وتضربنا بعنف عنـد الخطـأ. كانت تربط أخى وجيه بالسرير.. نعم كان شقيا وأبى غائـب وهى أم وأب ولكن لماذا تعنف أبيها عنـد زيارتـه قائلـة : ماشى ورا المره..

جدى مرزوق يضحك ويلاطفها.

ظللت فترة طفولتى وصباى حتى أيام ثانوى وأنا لا أفهـم خشونتها المتعمدة.

حتى ضقت يوما بدعائها علينا وأوامرها، فشجعنى ذلـك الولد الذى أتمنى الخلاص منه أو منى - على التمرد - كسر هدوئى ودفعنى للسفر وترك البيت، فسافرت إلى عرفه خالى فى مسطرد لأول مرة بلا عنوان.

عرفه

استطعت أخيرا أن أرى النور والأرض تفتح ذراعيها لى. وحدى فأضرب الفأس فى بطنها. أعدل خطوطها وأرتاح من عذاب النفس، كلما أنظر فى عينيك يا أبى.. كـل ابـن آدم خطاء.. وأنا جهزت قيراطا فـى آخـر الأرض وزرعـت الباذنجان وصرت نحلة لا تهدأ، فى أرضك - يا أبى - لعلك ترضى. أحس أنك تشك. تغوص فى عينى. ماء الطبيخ لـم يزل على صدرى. ذلك المساء - من عامين - أغلقت الباب دونى فتسلقته مستندا على حائط الجيران بعدما نفـدت كـل الحيل، نزلت السلم على أطراف أصابعى فاجأتنى بضـربة عنيفة كلها غل ومرارة. ضربة عطلت ساقى أياما. ضـربة انتقام ويقين. كانت مديونة وكنت أضربها. وقف الباب بيننـا واسترجعت دفاترها وحضر الطاهر.

الحمد لله.. غارت.

جمعت معهم ما يحتاجونه من ملابس متظاهرا بالضـيق كانت زنوبه ترمينى بنظرة أعرفها. نـوال تخفـى فرحهـا وتقول: كده تسيبنا يا با مرزوق. فلا يرد أظن إنه يهرب من الأرض. ألم يختبرنى؟! ليعلم مدى فلاحى.. أم يكرهنى ؟؟!!!

فليكن ما يكون.

يذهبون جميعا إلى الزقازيق، إلى الجحيم. لا يهم. يخـدم فى مسجد أم يخدم فى أى مكان يحب؛ كل واحد حر لتخلـو الدار.

أنا ونوال وفتحيه ابنتى فقط. نجرى ليلا فى الدار - يـا نوال - ولا أحد.

لوتمتلئين قليلا. عودك ممصوص، وعينـاك غجريتـان. أخذتَ زنوبه يا أبى، من أغيظها وأدفع أمامها نوال. أمسـك بثديها فتأكلك الرغبة يا زنوبه.

كأنك زنوبه يا نوال ولا فرق مادامت الرغبة فـى حـر الصيف تفور فى عروقنا، ولا تهدأ.

وقفت نوال عارية وسط الدار.

وأنا يشغلنى ضحكها المغناج، وجريها الملسوع، طويلـة ككافورة، ممصوصة لكنها ممتلئة برائحة النسـاء.. جريـت وراءها. فأغلقت دونى الباب، فتذكرت زنوبه. انفتح البـاب دخلت مهزوما، فانتصرت لى برقصها. أولجت محراثى فى أرضها.. رويتها ... ثم همدت من التعب.

فى العصارى ركبت الحمارة وسحبت البهـائم، قطعـت الحشائش الضارة من القطن.

القطن الثانى بعد زواجى.

الطاهر

صحوت اليوم شاعرا بأن رأسى ثقيلة، غير راغب فـى الذهاب للشغل. لكن المرأة ضربتنى بساقها وهى نائمة. لـم أفتح عينى. ظلت خيالات سوداء تتراءى لى كأننى فى بيـت واسع كبير متعدد الفتحات. تطل منه رؤوس مخيفة.. أهرب. رغم يقينى أن نجلاء لكزتنى ثانية ولـم أنهـض. كـررت، فانتفضت بضيق. كان ريقى ناشفا، شربت الماء من الحنفية، وضربت ببعضه وجهى الذى لم يفق إلا على لسعات البرد ، أدوس على بدال العجلة وأنطلق.

كل يوم فى ذلك الملل والزحام والناس. وجـوه تفاجئـك بابتسامة باهتة. أضع الطبق فى كشك خشبى.. أفرغ الطعمية والبيض والطماطم وأرغفة الخبز والجبن القريش. ويـأتون يطالبون كما لو كانوا سادة. اليوم أحس أنـى راغـب فـى التخلص من كل ما معـى. مـن النـاس والكشـك والبيـع والمماطلة، وتسجيل بقايا حساباتهم فى كراسة بالية. آه.. لـو أوزع شرودى وألمى على شقوق هـذه المدينـة الواسـعة. ألطمها بيدى ولو لطمة واحدة وأنام.. أنـام بـدون رفـض

امرأتى وطلبات حماتى، وطبق الترمس فى العصارى بـين شوارع تلطمها شمس الغروب . لماذا أفيق اليوم - هكـذا - مهموما.. حزينا، ورؤوس غريبة ذات ملامح غليظة، تمـد أذرعها الطويلة نحوى كأنها تدفعنى إلى بئـر بـلا قـرار. أصرخ متشبثا بيد أحد.. ولا أحد. فقد تباعدت البيوت وبدت رمال واسعة حول ذلك البيت المتهدم. ضحك عرفـه حـين أخبره السيد ابنه بأننى وقعت فى حفـرة، جذبـه مـن يـده لنجدتى. قال عرفه : مجنون. ونجلاء بدلا من مد يدها حلت شعرها وشقت ثوبها فاضحة اللحم، واندهشت إذ مدت زنوبه يدها وحاولتْ. ومددتُ يدى. أوشكت على لمس يدها.. يبـدو أن أحدا داعب جسدها فأفلتت يـدى.. وتماليـت رؤوسـهم الغليظة حين تجمعت عند رأس الحفرة ملامحك يا أبى. كانت واضحة وواضح تضييق عينيك وأن تتفل فى وجهى.

أنهيت ما بالطبق كأنى أرمى به للكلاب. ذهبـت إلـى رئيس المكتب أخذت تحويلا للتأمين الصحى هنـاك شـكوت آلاما وهمية.. ولم أصرف الأدوية؛ قالت نجلاء على الغداء : أجازة ليه ما انت حلو. عند العصر كان طبق الترمس فـوق رأسى ورأسى ثقيلة تشكو لرب العبـاد الخـبط الـدائم، دق

المسامير لا يخف، درت كثيرا ولم ألب نداءات عديدة. لأننى كنت أفيق عليها بعد عبورها بمسافة. كانت عربة الأنابيـب تسحبنى لأركبها.. أقذف بالأنابيب إلى وجوه صارخة هائجة. تعبت فأدرت ظهرى لاعنا الغروب والعيال التى تشد جلبابى. الطبق مازال ممتلئا.

يا رب تعبت من الدوران وكلت قدمى. فجأة، ضربة فـى الظهر طيرت الطبق من فوق رأسى، ورمت بى بعيدا. كادت العجلات أن تعلن القرار لولا يقظة غبية من السـائق الـذى سبنى ولم أرد.

إليك يا نجلاء أندفع.. إلـى ظلمـة الأودة، أغلقـى كـل الأبواب.. دعينى أنام كى أتخلص من الدق.

لا أرغب فى السير والترمس والشغل، السيارات سريعة، وأنا متعب يا حمادة.

ارتميت ممسكا برأسى، غطتنى نجـلاء، وكانـت بهيـه تحاول أثناء نومى - وأنا ضائع فى ظلام أكثر سـوادا - أن ترقينى وتملس على ظهرى بحنان.

أرتاح لدفء يدها وأنام.

بهيه

أنت يا طاهر ليس لك غير الشهادة.

" واللى تغلبه إلعبه "

أبوك لا يكرهك.

ربما تكون زنوبه قد وضعت غمامة على عينيـه، فـدار حواليها، أعلم أنه سريع الغضب بطبعه ولا نتفاهم معه.

لكن يا أخى عيش. وذاكر. وانجح.

الدنيا مثل جمل كبير لا ينخ إلا للأقوياء.

مرزوق

أغلقت كل الأبواب بنفسى واستكنت صاحيا تلـك الليلـة. ربما هى الأخيرة لها.. أو لى. أعتقد أن أحدا سوف يـأتى ، واحد سوف يطرق الباب. وعلى غفلة منى تتسحب زنوبـه معتقدة أننى نائم. عندها يكون شخيرى عاليا.. عاليا. يغطـى على كل مخاوفها. سوف أقتلك إذا فتحت الباب أو تقتلينـى. لن أترك شيبتى تعبثين بها. لن أترك جلبابى تفترشه الـديوك وتتصارع عليه. الليل سكون وتأهب دائم. إشـارة المتلهـف للجسد المترجرج من يطفئ نار الرغبة، نارى لـو وزعـت على ظلام طحلة لأشعلته حريقا. يأخذ فـى طريقـه محمـد وإبراهيم والقادم إذا كان ابنى. خسرت كثيرا كان هنا خبـزا وأرضا و ... عرفه. هل تمرح الآن يا عرفـه فـى أرض أبيك. تأكل الجرجير والخيار والقثاء. تتكرع كبغـل. كلهـم بغال. يحرق الصيف خراطيم رغبتهم.. يدورون على كـل الخرابات، بغية العثور على كلبة قحبة تسـحبهم وراءهـا. يتعلق بفرجها من ترغبه. حتى آخر الليـل. أنـا وشـخيرى حماران يهزان أذنيهما الطويلتين وينامان واقفين.

صعود الزئبق

عرفه

كل صباح تسحب البهائم حبالها وتنطلق بمجرد فك قيدها من الوتد. وسط الدار يكون خاليا من الغبيط والنـاف ومـا يعرقل السير.. تنطلق عارفة طريقها إلـى البـاب، تـوقفهم نوال، ألحق بالعصا عنادهم. أضربهم لا أكره غيـر العنـاد والعقول المقفلة. كثيرون يا ربى مما خلقت يحتاجون العصا. لم تتوقف تحركات الطاهر بالأمس فى وسط الـدار. قالـت نوال ذلك الصباح يجب أن تسد الثقب الموجود بالباب. هـل يتطلع الطاهر لعرينا يا نوال. هل كبر الولد وآلمـه البـرد وحيدا فحاول أن يأنس بعرينا؟!

عند الحد الفاصل بين أرضنا وأرض أبو اسماعين قعـد الطاهر فاتحا كتابه بضع دقائق ثم رمـاه وأطلـق صـفيرا كجحش يرى فى البعيد حمارة قادمة.

تذكرت ما قالت نوال. قلت :

: ذاكر يا حمار.

: متشتمش.

: أنا هنا مسؤول عنك.

: أنا فى حالى.

: لو يسر كنت أفرح.

: تفرح تزعل انت حر.

: يا أخى خلى عندك دم.

طوح الطاهر الكتاب على طول يده. غلت دماء التحـدى فى عروقى، فاندفعت إليه ولم يبال.

وقوفه الغبى أمامى جعلنى أضربه على وجهه. رد يـدى بشدة، فأكملت ضربى لعله يتأكد أننى سأحسم الأمر أو يذهب للجحيم.

تلك العقول أقفلت على جهلها ولن تنفتح.

بابتعاده مسرعا، قعـدت علـى ريشـة الأرض أسـتعيد اندفاعى وتمرده الواضح. ولم أفق إلا على قلاقيل من الطوب يطوح بها الطاهر من فوق التل القريب. قبل أن آخذ حذرى. كانت الطوبة صاروخية فأصابت رأسـى، فتحـت جرحـا صغيرا نزف منه الدم. لم ألحق به. عـدت خائبـا، غسـلت رأسى بماء الترعة وأحكمت يدى على الجرح. ثلاثة أيام ولم يعد للدار.

تقول نوال : الطاهر يعمل كده؟! أنا أعلم النـاس بـه مـا توقعت جرأته ذلك اليوم ولا قلة أدبه.

أنزلت المرتبتين القديمتين من فـوق العربـة الأجـرة، واللحاف والحِرام الصوف وسبتا محشوا بالملابس.. وحلـل قديمة نحاسية قد علاها الصدأ والهباب الأسود.. تغيرت من الداخل ألوانها؛ كان الواحد يرى فيهما وجهه قبل سفرهم.

عام يا أبى وتعود. خذ أرضك، أود أن أرمى كل شـئ. تعبت. أود التملى من مشية زنوبه حتى تفيق أعضائى.

نصبت السرير الحديدى المركون إلى الحائط فـى الأودة. وفرشته نوال بالمرتبة المبقعة والمخدة. قامت زنوبه وعلقت ملابسها المتنوعة الإشى كأنها ترينى أو تغيظنى، كان أبى قد ارتمى وسط الدار متمليا حوائطها الطينية متسائلا عن أخبار الزرعة.

قلت : القطن بيزهر وحلو.

رفعت زنوبه جلبابها عن ساقين متورمتين ولما أظهـرت ضيقى لألمها خرت بجوار الحائط متباكية.

وقالت : أبوك.

: ليه؟.

: طول عمره شكاك.

: طبعا.. طبعا.

كانت الكدمات التى لحقت بساقيها الملتفين قد تركت بؤرا قاتمة، محتقنة بالدماء، مبعثرة بهمجية بين ساقيها.

خفت أن تدخل علينا نوال وكانت فى ماكينـة الطحـين، كأنها تدس قش الأرز فى الكانون فيتوهج وجهها فى ظـلام الدار، ترفع يدها بالخبز الساخن.. قعدت بجوار زنوبه وقلت غطى.. كفاية، فرفعت الجلباب وبان كلوت أحمر ضـاغطا عليها.

لم تتعود إخفاء شئ. بـان صـدرها وتـورم خصـرها، وجروح حفرت بعد معركة بأسنان قويـة نزلـت دموعهـا. غطت لحمها الطرى المدمى وثدييها العاريين.

قلت : ليه يا زنوبه؟؟

قالت : أنت تصدق فى الشين؟!

قالت بأنوثة ودلال: أطلقت لذاكرتى العنان واستعدت زنوبـه بكل أمجاد أنوثتها.

كان أبى فى السوق تركت محمدا عند البهائم بعد الغـداء، ولما دفعت الباب ناويا أن أرسلها إلى ولـدها حتنـى تعـود بالبهائم والبرسيم وتتركنى أنام بعيدا عن وهج الشمس، كانت زنوبه تفح لهيبا ساعتئذ. يدها على وسطها، وتكور الجسـد وانثنى أمامى ثم راحت وجاءت، وقفت متمليا. يدى تبحـث عن كوز الماء كى أرتوى من الزير، تـدللت فـى مشـيتها وسحبتنى وراءها على السـلم مفتونـا برجرجـة الـردفين العاريين تحت جلباب لبنى يشف عما به، ارتفعت الدماء إلى عروقى واندفعت. انثنت فتحدد حجم الردفين، أبعدت غلافـة الذرة ثم ارتقت الدرج الطينى. ربما لم تهبط قدمها جيدا فـى موضعها لأنها مالت بعودها الريان على. صارت فجأة بـين يدى، كل هذا الامتلاء والنعومة والعرى الجميل، التصق بى. أحسست بالجسم الطرى الفوار، دفعت باب المقعد وجـذبتها فتأبت. امتلكتها فى صدرى.. قالت عيب.

عصرت رغبتها.. وعصـرتنى بـين سـاقيها القـويين. اكتشفت سرا آخر للحياة يجذبنا طويلا وراء غموضه، حتـى ينكشف دفعة واحدة، فنصحو باردين.. معتـرفين أن السـر ليس مغارة غامضة تجذب أعضاءنا، وتهد حيلنا. إنما السـر فى الرغبة التى لا تتحقق. السر فى الرواح والمجـئ أمـام البنات، نسهر الليل ونبكى ألما مبهما وحزنا غامضـا نقـول عنه الحب.

ربما كانت مشاجرات نوال مع زنوبه مبعثهـا الغيـرة أو اندفاع نظراتى إليها بعد طول غياب. لو تعرفين يا نوال مـا تشاجرت معها. إنها تبعث الرغبة داخلى، تفيـق أعضـائى الخاملة، فأندفع كالثور إليك كل مساء أروى ظمـأك الـذى طال. أنت جئت صدفة يا نوال. لم أبغ الزواج إنما وجدته بك وفيك لا محالة. لست زنوبه رغم أنك قريبتها. ربما تحملـين تورد خديها لكنك غير راضية مثلها.. عود ممصوص، مـن مص عودك يا نـوال؟؟ الأرض؟ أم الشـقاء؟! أنـا أيضـا ممصوص الروح غير عائش، غير محبوب، كأنى أعـادينى كلما انفردت بنفسى.

جلس أبى يسمع من زنوبه ومن نوال شكايتهما. يتحقـق من صدق الأقاويل. كنت خائفا أن يفضح نظراتـى إبـراهيم الصغير. انجلت التهم واضحة وبعيدة عنى.

قالت نوال : عايزانى أبيع القمح لابو شعبان البقال.. ولمـا قلت حرام يا خالة. تفت فى وشى.

ولما كانت هذه نوال التى أعرفها وأعرف أنها لا تستغنى عن أكل المشبك والإفطار بالطعمية السـاخنة. فقـد آثـرت السكوت تاركا أبى يمزق لحمها.

انفردت بنوال وقلت لها : ورينى هنعيش معاهـا إزاى يـا فالحة.

قال أبى أنه يحبنى ويعز عليه فراقى، لو أسافر لأى بلـد وأعود بالفلوس نشترى أرضا ونبنى بيتا واسـعا يجمعنـا.. زنوبه حامل جديد والعيال كثيرون.

كان ذلك دعوة صريحة كى أترك الفدانين ونصف. أحمل نوال على كتف والصغيرة فتحيه على الآخر. وأرحل إلـى بلاد الله.

قلت : حاضر يا أبى.

أرسل لى عم صبحى - بعد أيام - أن أحضـر شـهادة الاعدادية. وأجهز بعض الأوراق.قدم أوراقى معه فى شركة إيديال وقال عد للبلدة سأرسل لك. أعجبتنى مصر وضـياع الناس فيها لا أحد يعرف أحدا. لا هم يكدر النفس يـا أبـى. كلما أراك تحاصرنى نظراتك بالشك والاتهام. قلت أشـتغل هنا. بحثت عن عمل حتى وجدت مسبكا، واشتغلت ونمـت عند عمى حتى ضاق بى، فبحث لى عن سكن.

وجد بعد تعب مكانا (عبارة عن صالة تفـتح علـى أودة مظلمة، وحمام ضيق على اليمين، وراءه مطبخ ضيق أيضا - قال عنه شقة - رغم أن المحلات المطلة علـى الشـارع والمكملة للشقة مقفلة دائما وعلاها الصدأ. وتظل الجحور - هكذا - للفئران) قال حلوة لك وللعيال. ولم أدر أنى سـأدفن هنا زمنا لا أستطيع الفكاك من ظلمة القبور.

أيام وليال تصهر النار جلدى وأنا منغرس حول الأفران. أنظر للسائل الأحمر وأخالنى وقعت فيه متحولا إلى لاشـئ، متحدا بالحديد والوهج والانصهار.

لافتات من قماش، وصور مـن ورق. أبـواق سـيارات لاتتوقف. لماذا كل هذا الزحام؟. دفعنى الفضـول فتوقفـت ناظرا من خلال الخيمة.. خلق كثيرون قاعدون على كراس خشبية. فى الأمام صف واحد من الكراسى القطيفة. صـعد المرشح علت الهتافات.. انتشر ضـجيج وصـخب وكـلام كالأغانى. كانت انتخابات مجلس الشعب بعد اغتيال الـريس بعام. تركت الخيمة واتجهت إلى محطة الأتوبيس يتملكنـى التعب وفضولى سقط عند أول كلمة فى الخيمـة. الأفـران الحديد صهرت رغبتى فى الكلام؟ أم أن الأفران لا تعـرف سوى الانصهار والتحول.

سألت نفسى : متى أشتغل فى إيديال؟؟ ثلاثة أشهر ولا خبر. صار شكل المسبك وشارعه والأتوبيس الموصل له يبعث فى قلبى الضيق. الزحام فى المحطـة كبير كأن كل الجالسين فى خيمـة الانتخابـات جاءوا دفعة واحدة. لم أتمكن من رؤيـة نمـرة الأتوبيس بل جرينا جميعا وراءه حتى توقف.

سألت : مسطرد؟

رد آخر : اركب.

هذا الزحام أهون من درس الأرز، وتحميل الذرة. تلـك الحياة مملة لو ظلت هكذا ولم أشتغل فى إيديال.

أعدت سؤال الكمسارى عن كوبرى مسطرد قـال : لأ.. انزل أول شارع الكابلات واتمشى شوية.

ملعون الزحام والناس التى لا تفهم. أنـا مهـدود الحيـل طوال النهار أحمل وأدفع العجلات وأقف أمام الأفران، ناس تأكل الحلويات وناس تركب عربات فاخرة، وآخرون يركبون تاكسيات. لماذا يتصيدنا الفشل يا أبى؟.. ليتنى سمعت كلامك يا بهيه. قبل ثلاث سنوات وسافرت أو تاجرت كزغلول ابن أبو اسماعين، جارنا، يوقف التاكسى أمـام دارهـم محمـلا بالبضائع المستوردة أو المهربة من بورسعيد لا يهم.. زغلول تحول بقدرة قادر من متسكع على قهوة طحلة إلى تاجر كبير يفرش فى الزقازيق ويبيع للمحلات الكبيرة، وامتلك أرضا.

ربما ذلك ما قصده عمى عبد الستار بسؤاله لماذا جئـت إلى هنا، أرض الله واسعة. ساعتها ظننت أنه يقصد المبيـت - عنده - فى الشقة الجحر بالمساكن الشعبية.. حجرتان بلا صالة وحمام متر فى متر ومطبخ تصل إليه عبـر ممشـى قصير ضيق، لا يسمح لعابرين بدون احتكاك. شـقة تكفـى

رجلا وامرأة عجوزين يتحسسان الحوائط بمفرديهمـا فـى الظلام.. عمى عنده السيد وجيش من البنات. نعـم أرض الله واسعة وتسعنى أيضا. سأعمل وأكسب ولن أفشـل.. طبعـا بإذن الله.

تخطيت البوابة الحديد، سائرا فى طرقـة طويلـة حتـى وصلت لباب شقتى. نوال فتحت مبتسـمة، خلعـت حـذائى وجددت وضوئى وصليت.

كالت نوال قد وضعت الطبلية فى الصالة. اقتربت فتحيـه وتمسحت بى. قبلتها وتعشيت.

سألت نوال عن أخبار الوظيفة. أحسست بسخرية وخيبـة أمل ونظرة التأنيب وراء سؤالها. هل أشتمها أم هى معذورة. الأمل الذى شدنى من طحلة إلى هنا يتحول لخيبة.

قلت لها : هعدى بكرة على عم صبحى.

قامت إلى الحمام حاملة طبقين وحلة فارغة، المطبخ بـلا حوض. قمت إلى السرير مدركا أنم أياما سوداء سوف تحل لو لم أشتغل فى إيديال.

أبى حمل فرشنا على العربة كأنه يقول روحة بلا رجعة.

حاولت نوال أن تنتشلنى من همى. لكن أنوثتها وهذرها لم يخففا عنى.

بعد أسبوع.

دعوت لأمى بالرحمة وشكرت الله على استلامى للعمـل فى شركة إيديال، داعيا الله بالتوفيق، ختمت صلاة العشاء ثم نهضت، حذائى فى يدى..

الباب مقفول. التفت ورائى، رأيت شابا أبيض الوجه على يديه بثور سوداء، اقترب منى : اجلـس يـا أخـى اسـتمع للدرس.. وددت لو أخبره أن امرأتى وابنتى وحدهما غير أن واحدا منهم قطع السكوت : سيبه يا دكتـور. قلـت دكتـور بجلباب قصير من تحته سروال أبيض. شـجعنى فضـولى، وجلساتى فى المسجد الكبير ببلدتنا نستمع للـدرس عصـر بعض أيام الجمعة، هناك المسجد يمتلئ عن آخره. لماذا هنا قلائل؟! ويدخلوننى ضمن حلقة غير مكتملة. صوت الشـيخ الشاب هادئ، رنين كلماته نفذ لصدرى. ارتجف القلب واغتم لأحوالنا. شردت فى البهائم التى انطلقت بلا حبال تنطح فـى الرائح والعائد. احتميت بمجلسى واسـتفهمتُ فمـا أجيـب سؤالى. إنما قال من بجوارى : استزد ولا تقاطع.

اعتادت نوال تأخرى بعد العشاء. كانت تأخذ فتحيه فـى حضنها وتنام.

قالوا : نحن جماعة للدعوة فـى سـبيل الله. نـدعوا العاصى ليتوب. هذا الزمـان كثـرت أخطـاء الناس، من يستطع عد خطاياه.. تذكرت زنوبـه وانجذبت للحديث.. كانوا يعلمون أنى أعمل فى إيديال. قلت : وأبحث عن عمل إضافى، الإيجار غال والمسبك رفض تشغيلى. قالوا : يا أخـى كلنا أخوة فى الله. ما رأيك أن تعلم أولاد الحـى القرآن.

: أنا؟!.

: كم تحفظ من القرآن.

: عشرة أجزاء.

: حسنا.

قالت بهيه : حد الطاهر معاك.

تندمي على زيارتى لها. دائما تقابلنى بالأسئلة ولا يعجبها أحد. من أول جحرى المظلم إلى هجر الأرض كـى تمـرح فيها زنوبه، حتى أنانيتى وعدم سؤالى عن أخى.

قالت : هو مش أخوك؟.

قلت : ميفضل هنا.. مصر صعبة.

وجاء الطاهر.. اشتغل فى المسبك ثم قفز فى عربة توزيع أنابيب الغاز. اختفى شهرا لم يأت للمبيت.

ولم أسأل عنه.

كلفنى الأخوة بالدعوة إلى سبيل الله فى إيديال. كلما أنفرد بواحد وأحدثه عن الدين وأهمية الاقتداء بالسنة يهز رأسـه، أسحب طرفا من حديثهم فى المسجد عن أحوال البلاد وانشغال الكبار.. وضياع الضمير ثم أؤكد ضرورة العودة للمنبـع.. يسمعون ثم ينصرفون. أو يقولون : واحنا مالنا.

: خليها على الله.

: ابسطها يا باسط.

أوقن أن الاستكانة وراء الكلام راقدة..عيـالهم تسـحبهم لتجاهل الأمور.

(محو الضلال من عقول وقلوب الناس واجب على كـل مسلم) قال الشيخ الشاب.

سافرت مع الأخوة إلى العزب والقرى المجاورة. انشغلت عن الصغيرة فتحيه ونوال الحامل. الناس يسمعون، يعطوننا آذانهم ثم ينسحبون واحدا، واحدا. ألم أعش فى قريـة كهـذه القرى.. هؤلاء ألا يعرفون دينهم؟؟ ربما.

جرت الفلوس فى يدى فقلت الخير آت. حتى تحولت ذات يوم للتحقيق..

قال المحقق : أنت تحرض العمال.

: لم أفعل.

: لماذا تطلق لحيتك؟.

: هل هذا ممنوع؟.

: لا. لكن وقت العمل للعمل.

: .....

: أمور الدين لها وقتها.

واكتفى المحقق بنقلى من قسم الصيانة إلى كبس الغاز.

قال : أنا أخدمك من أجـل عيالـك. مـرة أخـرى أستخرج لك قرارا بالرفت.

الليل لما يغطى بظلامه على الناس ترتمى فـى أحضـان نسائهن. تبحث عن الرغبة التى طمرتها الخلافات والأيـام. يدفعون ارتخاء أجزائهم السفلية ثم يمتطون جيادهم الحرون.

يا نوال لن يكون لى بهم علاقة أو صلة وغلطـان أنـى شكوت لك همى.

بعد شهور وضعت نوال السيد.

اشتريت حزما من القصب، وفرشت أمام البيـت حيـث المحال المغلقة ورائى.

أقشر القصب وأبيع للعيال. أرانى سـائرا فـى بـلاد الله وحيدا.. على ظهرى حمولة القصب وفى الجحر العيال.

صدرى يزيق مزدحما بالغاز.

أقرضنى الطاهر من فلوسه وكان قد صار حمـالا علـى عربة أنابيب الغاز ويبيت عندى.

أذكر ظهوره الأول بعد اختفائه. أخرج من جيبه سـتمائة جنيه قال : خد يا أخى. تعللت. قال : خد احنا اخـوات. ثـم أشار على فى اليوم التالى بتجهيز عربة ترمس على كوبرى مسطرد.

الولد طاهر أفكاره مربحة.

يأخذنى كل جمعـه - معـه - أحمـل عربـات الغـاز بالاسطوانات من المستودع الكبير بمسطرد.

يتدفق الخير، فآتى باللحم وتعم البهجـة بطـن العيـال. والطاهر يتنطط من عربة لعربة ومن بلد إلى بلد. ثم يعـود فى المساء ليرتمى كجوال الملح على السرير مع فتحيه فـى الصالة الباردة.

زنوبه

كنت وما زلت أرضا عطشى.

عند العمدة عريت جسدى. قال عيب يـا "مـرة" وطلـب مرزوق الذى جاء يسب : بنت كلب بتسرق شـقايا وشـقى عيالها.

قلت : أنصفنى يا حضرة العمدة أنا ولية.. وغريبـة وحيضربنى تانى. قال لمرزوق : خد مراتـك. لما عدت أكمل غضبه بضرب أعمى، فأمسكت بخصيتيه وتركته مرتميا على الأرض يصرخ. قلت فى نفسى.. ذق يا مرزوق وكلنا ذنوب.

أعلم أن ضربك لى غيظا وانكسارا. قف وأرنى رجولتك وارو ظمئى.

حملت السبت على رأسى المتورمة يا مرزوق. سرت فى ظلمة الليل أبكى. والله لأرينك أياما وليال أسود مـن ظـلام لياليك. يا بن الناس، أنا بنت عِزَب.

قالت زوجة أبى الضريرة : إنتى جيتى.

وصبت على شتائمها. حملت بقايا قمح وذرة وطحنتهمـا، أتيت بمن تخبز. فدائما تعيب خبيزى، وأعيبها. تركها أبـى ورحل مع أخى إلى مصر.

هذا السرير الحديدى قائم كما هـو.. وحـوض المـاء.. وصغيرى نائم فى القاع هنا.. يال الأيام التى لم تتزحزح !!، يا ألم ظهرى والقايش يحفر فى جسدى قنايات من دم. القلب مجروح يا بيت جاويش.

القلب محروق يا مرزوق.

كفاك يا عمياء عمىً.. أنت لا تفهمين ما جرى لن تخلعنى من قدمك - يا بن عريفة - فردة حذاء وترمينـى. محمـد وإبراهيم ومصطفى وعزيزة أمامك باقون.. يلعبـون. كنـت ألعب فرحة بالمشط الأبيض ذى الأسنان المدببة. أضعه فـى شعرى ولا أعرف. تشده منى أمى وتخفيه. قبـل المغـرب يعود أبى من أرض الست هانم. فيجرى أخى خيـرى إليـه ويتعثر، ينحنى أبى ويرفعه على كتفه وأتعلق بيده. أيام ولت. وما بقى غير تلك العمياء.

والدار القديمة.

بعد أسبوع جاء مرزوق. عدت خلفه سائرة وهـ و فـ وق حمارته محتضنا " السَبَت " وبداخلـ ه هـ دومى. انطـ ق يـ ا مرزوق.

قل : أنا.. ديك يا محنتى آلامى لا تحمل التأجيل.

عدت يا على فى قدميك شبشب بلاستيك مقطوع. منكوش الشعر. الشمس امتصت احمرار وجهك. ومنحتك صـ فرتها عند المغيب. عدت بعيون زائغة، بلا لهفة بلا دموع. ارتميت على أرض الأودة. خلعت من فوق بطنك القايش والجاكـ ت الميرى. رأيت الشريطتين. مقطوعتين، فرتقتهما. تركتك ينز منك العرق بلا غطاء. حتى صحوت من النـ وم مفزوعـ ا. تغطى رأسك ووجهك بذراعين تحتمى بهما من دبابير تحوم فوقك. اقتربت كى أحتويك. كنت تنادى على رفاق ابتلعـ تهم الصحراء والرمال والوهج.

تقول باكيا : استخبوا يا رجالة.

أتذكر يا على رفاقك وسيركم صحبة فى أنحاء العزبـة. تنظرون إلى الدور القديمة وتوزعون الأرض ... هذه تصلح لـ ... وتلك للبتاع الاشتراكى وأخرى. كأن عزبـة جديـدة سوف تقام هنا. تملأنى فرحتك بالرضا. تقـول : لا تقلقـى الخير آت. صار لأبى أرضا بعد شقاء الخدمـة فـى أرض الست. انتشرت فى دور العزبة روائـح الطبـيخ والـدجاج المحمر. تحية للضيوف.

مالك يا على.

فى الصباح ذبحت لك ديكا أحمرا؛ كان يقنلنـا بصـياحه وآذانه كل آن.. أسقيتك المرق بالملعقـة، فتناولـت الطبـق وشربت مرتويا حتى الثمالة.

قلت لك : نم على السـرير. لكنـك افترشـت الأرض وتطوحت فى نوم ليس له آخر.

تلك الليلة خلعت كل ملابسى. اقتربت منك تحسست كـل أعضائك فأفقت مذعورا. ارتميت على صدرك، مهدئة مـن روعك، ملتصقة بكل ما فيك. مد يدك. تحسس عرىى أطفـئ نار شوقى. لكأنك لم تكن معى. رأيت عينيك ناظرتان إلـى عرش الأودة. تتابعان الشقوق والسوس ينخر فيهـا. وقفـتَ فوق السرير ثم تعلقتَ بالعروق الخشب خابطا ببطن كفـك، فتساقط السوس على يديك. تمليته ثم لطمتَ به وجهـك يـا على. بكيتُ من أجلك. ضاعت ملامحك وأنا تخشـبتُ فـى وقفتى. قفزتَ من فوق السرير. درتَ حولى. عيناك تبحثـان عن شئ. بقيتَ دائرا وأنا ناظرة لارتخاء عضـوك. وللقـوة التى دبت فى أوصالك. انمحت كـل رغبـة فـى العنـاق. وصحوتُ على لسعات قايشك لجسدى. صرختُ قافزة. لحقتْ بتقاطيع جسدى لسعات أخرى حارقة. أخذت أدور حولـك. أدور كجاموسة مغماة فى ساقية لا أعرف لـدورانى آخـر. وأنت تتطلع لعرىى فاتحاً عينيك.. ولا أنسى إلـى - الآن - فزعك يا على.

كبرت تلك الليلة وشاخت ملامحـى. وحفـرت الـدموع مجرى فى كل أنحاء جسدى، فتبللت بدمعى.

أنا لم أحب غيرك يا على وتلذذ جسدى بلسـعاتك. كنـت أخلع الغمامة وأنظر لك فتخرج آهاتك من الأعماق. تتلاحق أنفاسك وأتقطع من أجلك. كل آن أتحسس عضوك لعلك .... أتثنى أمامك فى كل ألوان الإغراء لعل نظراتك تفيق. كانت شاردة، تحادث أشباحا فى سقف الأودة وتنظرنـى بحـزن، تدارى عريك. أخلع تربيعة رأسى. أحل شعرى، وأدعـوا - بحرقة - على من سلبك رجولتك.

كنا نخفى عنك موت الصغير. أمك الضـريرة - زوجـة أبى.

قالت : بلاش تقولى لحد ما يسأل.

ولما أفقت ذات صباح وكان بالك رائقا. أو كنـت أعتقـد ذلك. سألتَ : ما شفتش الولد الصغير.. ليه مبيلعـبش قـدام الدار؟!

ربتت أمك على كتفك.

وقالت : مات.

انتفضتَ كثور عمته المفاجـأة.. بحثـتَ عـن قايشـك وضربتنى. ضربتنى حتى نشع الدم فوق هدومى. أمسـكتنى من رقبتى ثم دفعتنى إلى حوض الطلمبة وقلـتَ : أخرجـى الصغير.. ولدنا لم يمت يا زنوبه. وبكيتَ. ارتميـت علـى رجليك. قبلتهما.

وقلتُ : امنحنى ماءك يا على. فمـا منحتنـى سـوى الارتخاء والدموع ومت بعد أيام.

جاء زملاؤك لزيارتك أكثر من مرة. لكنى لم أنس آخـر مرة وقد افترشوا وسط الدار. أعددت لكم الغـداء. وناولتـك الشاى.

سألتَهم عن الاستعداد.

قالوا : احنا مستعدين لأى إشارة. ضـربتَ صـدرك وتكرعت.. ضحكتم جميعا ورأيتُ أسنانك الحادة بيضاء متلألئة.

فى العصارى وضعتم العروق الخشـبية وسـدد الغـاب والحطب وأنهيتم بالقش على الأودة الأخيرة.. نصبتَ فيهـا سريرنا الحديدى. وتركتَ أودة عرسنا لأخواتك المتكومـات مع أمك فى مكان واحد. خرجتَ معهـم.. كـان ضـحككم

وهذركم يملآن العزبة. عدت لى فى المساء. رفعتَ سـاقى إلى سقف الأودة الجديدة. أتيتنى بكل قوتك، كليلـة عرسـنا حتى تأوهتُ. وطقطقت العروق الجديدة.

من أين تأتى بشقاوتك يا على؟

كيف ملأت بطنى منذ ليلة العرس؟؟!

أنت حبيبى وسر بلائى. وليس بعدك أحد يملأ عينى يـا رجل.

ربما معك يا مرزوق تنحل الكرب.

وتنفك عقدتى وأنام تحتك، فتمنحنى دفء الحياة وتشـفى بأبويتك جروح جسدى. تلملم بيديك تبعثرى.

من يلملمنى يا ناس؟

رجل يعافر صاعدا تلالى ونتوءاتى. ولن أسقطه من فوقى إلا إذا رغب.. أو انهار.

أحتضنه وأقول يا ملاذى.

أنت يا مرزوق جئت محتاجا للخلاص من وحشـة دارك. جئت ترمى على شقاء ولديك.

كان الطاهر صغيرا.. حملته فـوق كتفـى وقلـت : يـا صغيرى.. ربما ملامحك قريبة منه.

لكنك منحتنى أمومتى. وأسكت رغبتى. جاءنى محمد ثـم إبراهيم.. وتلاشى مع الوقت تقارب ملامـح الطـاهر مـع صغيرى. صار ولدينا سندى وقرارى فى دارك.

أنت يا مرزوق من علمتنى أن أذهب للبقـال وأشـترى المشبك وبلح الشام. بعدما انهرت هابطا جسدى.. أول مـرة درتَ بنظرة كسيفة إلى شباك الأودة المظلمـة. وأحسسـتُ وهنك وكهولتك، فأخرجت حافظتك الجلدية وقلـتَ : هـاتى حلاوة طحينية ومشبك.

لم أكن صغيرة يا مرزوق لكن البسكويت والملبس واللبان صاروا يملأون جيوبى. مذاقهم يجرى فى حلقى - فى البداية - علقما. لكنى اعتدتهم. أمسيت كل ليلة أستعين عنك بهـم. وأنقبض من تحت. ألوك اللبان وأمطه ثم أجذبـه بلسـانى. أراك فى الليل عاريا تحـت الحـرام الصـوفى تتحسسـنى وأستنهضك فتدير مؤخرتك. أبحث عن اللبان فـى جيـوبى. أضغطه بين أسنانى بحرقة ووجع.

يعود عرفه فى أى وقت كأنه يراقبنى. أنا فى الـدار يـا عرفه. يحاول أن يبدو منشغلا. لكن التفاتى المفاجئ يكشـف سر نظراته، وتلهفه الأعمى.

كبر عرفه وتعمد أن يرينى عضوه. فقد رفع جلبابه قبـل دخولى بالعلف للبهائم فى الزريبة. ولو كان كلى عطش يـا عرفه. لن أرضى لك.

جرجرنى من يدى إلى الدار.وكنت قاعدة على مصـطبة البقال وقت الظهيرة. قال : قومى.. قاعدة عريانـة قدامـه، جلبابى الأسود كان على اللحـم، فالوقـت صـيف وأنـا لا أحتمل.. خبطنى على مؤخرتى وقـال : بيبيـع لـك إيـه. وبتبيعيله إيه؟؟

غرست أظافرى فى عروقه. طفح الكيل فشتمته، لعنـت أبيه واليوم الذى امتلكونى فيه. رفع الشعبة وجـرى - فـى الدار - ورائى. دخلت الأودة مسـرعة واحتميـت بالبـاب. يدفعه بفحولة ابن العشرين.. أوقفُ الاندفاع بردفى.

تحشرج صوتى وما بكيت. أنت ملعون يا عرفه وملعون أبوك.

على العشاء.

شملنا صمت القبور. وكان الطاهر سيقول لو لـم أخبـر مرزوق بتعديات عرفه. ولن أحتمل فحْلـيْن. يغلقـان علـى الدار. يفتك بى حر الصيف ولهيب الرغبة.

يا ناس أنا امرأة.

تهل البهائم داخلة الزقة خلفها، مرزوق علـى الحمـارة ممسكا بحبالها. عندما يرانى، يترك الحبال فأسحب الجاموسة والفحلة الصغيرة إلى الزريبة، ومرزوق ينزل آخذا البقـرة ليربطها على " مدودها ". يفك حمل البرسيم الذى قد اعتلاه، راميا به إلى ركن الدار. يذهب إلى المسجد لصلاة المغـرب ويحضر عرفه من شغل البَدَل أو الأجرة أكون قد وضـعت الطبلية وتحلق حولها محمد وإبـراهيم والطـاهر إذا كـان موجودا. يبسمل مرزوق بصـوت مسـموع وكـذا العيـال يلتهمون الأرغفة الطرية. ولا يتكلم أحد على الأكـل. مـن يجرؤ فى وجود مرزوق.

ينهض عرفه للمسجد ويتمطى مرزوق وإبـراهيم علـى الحصيرة يلعبان حتى يرفع آذان العشاء. فيعدل مرزوق بغته ويسحب إبراهيم فى يده للصلاة.

أودة فى الليل مظلمة. ولمبة جاز سهارى تشـع بنورهـا المذبذب وسط الدار. تتأخر العيال فى اللعب أمـام الـدار لا نقلق، الصيف ليله دافئ. يتمدد مرزوق علـى الكنبـة فـى المندرة حتى أفيقه لينام فى الأودة.

نباح كلاب. وبقايا خطوات للعائدين متأخرين. إذا تـأخر الطاهر أو عرفه بعد إغلاق الباب لا ينفتح المزلاج. أقول يا مرزوق افتح.. كل الشباب بيسهروا. يهز رأسـه بعنـاد ولا يرد. أحيانا يسب جيلهم. وخِلفته ويفتح.. إلا هـذه المـرة.. صلى العشاء ونادى الطاهر ومحمـد وإبـراهيم ثـم أحكـم المزلاج. كان عرفه بالخارج ولم أتكلم يكفى ما حدث ظهـر هذا اليوم. تسمع مرزوق خطوات تنزل السلم. أمسك بعصـا توت غليظة كانت وراء الباب. تأهب. قلت : يا راجل جايز ابنك.

قال : عارف. وتسحب فى الظلام علـى أطـراف أصابعه.

سمعت ضربة قوية، انفجرت إثرها صرخة عرفه التـى أفزعت كل من فى الدار.

عاد مرزوق قائلا : علشان يتأدب.

فى الصباح جره وهو يحجل على قدم واحدة إلى الغـيط. مرزوق على ظهر الحمارة وعرفه وراءه. تذكرت كلب أبو شعيب معلقا ساقه ولا يهمد.

تساءلت : لماذا هذه القسوة يا مرزوق. أبى كان يضرب أخى خيرى، فهجر الأرض. أرض الست هـانم التى يعمل فيها أجيرا. ظل أبى وحيدا، يضرب سن المحراث فى الأرض فتأتى بالخير للسـت. وهى مرتاحة فى سريرها حولها الكلاب الوفية. تدخل المحصول كل زرعة إلى صـوامعها ولا تترك لنا إلا قدْر قوتنا. أبى يحمـد الله. هـرب أخى إلى مصر. وصار عنـده ورشـة بعـدما أصبح ميكانيكيا. حملك على كتفه عندما أصابك الضعف. والست هانم طلبت ابنك يقوم بدورك. سبحان مبدل الأدوار صار لك يا مرزوق فدانين بعد نصف فدان. مت من أجـل أن تسـد حـق إخوتك فى ميراثهم.

نصف فدان دفعت ثمنه مرتين بعدما أنكروا بخس الثمن. كيف أستريح فى تلك البلدة اللعينة كل الناس يسبون بعضهم. يتقاتلون من أجـل رى الأرض أو دلـع البنـات أو تعـدى الحيوانات ناس أولاد كلب.

فى الصيف أتخفف من الملابـس الداخليـة. لا أحتمـل احتكاك اللباس بفخذى. ضربني مرزوق مرة بسبب جلبـابى الذى فوق اللحم بلا لبـاس. خلعـت الجلبـاب وأبنـت لـه التسلخات. دفع عرفه الباب بعنفه المعهود، متأففا لاعنا الحر والأرض والناس التى لا ترحم. كنت قبل لحظات أتحسـس فى الأودة عريى. وأرطب بالماء جسدى. تـأكلنى الوحشـة وخلو الدار. كان إبراهيم صغيرا يلهو بتراب الكانون.

نظرنى عرفه وجرى إلى الزير، دب الكوز فـى قاعـه. شرب وتكرع. وقفتُ أتأمل عوده. وعطشى الذى بـلا رى. يدى حول وسطى. وطلعت السلم لآتى بكيزان الذرة للدجاج. كان عرفه ورائى عينه وقحة ويقترب منى. تساءلتُ : بكـم أكبر عرفه، ولم أُجب. بخطوات هادئة أطلع درجة.. درجة. سيموت. وتنفقئ عينه، من يفجر الرغبة فى. انحنيـتُ أبعـد غلافة ذرة تحت قدمى - مجرد غلاف - لم أتقـن وضـع

قدمى على الدرجة التالية. اهتززت حتى وقعتُ بـين يديـه. فررت هاربة. قشعريرة دافئة أصابتنى. تحسست الحشـائش النابتة. عند المقاعد، كانت يده تدفع الباب والأخرى تشدنى. خفت أن يرانا أحد. دخلت. جسمى لا يحتمل أية لمسة. كـل ما فى يفور. تحسسنى وأنا أحاول دفعـه للـوراء محاولـة الهرب بينما كل جسدى يتراخى أمام احتكاكه بـى. قلـت : عيب يا عرفه.

قال : ح اموت يا زنوبه. عصرنى بـين ذراعيـه المتلهفتين. فناداه عطشى الدائم، اعتصرته بـين ساقى فخر. حاول كديك صغير أن يلهو فـوق دجاجة مكتنزة. أسقطته رغـم المناشـدة قلـت لمرزوق : جوز عرفه.. الواد كبر. نظـر لـى بخبث.

قلت : عيب يا راجل.. عمره ما بص لـى.. كنـت مغتاظة منه. كان مرزوق يحب أن يصدق، فهز رأسه. وسافر إلى الزقازيق.. إلى بهيـه ليـأتى بعرفه.

عاد يضرب كفا بكف ويقول : الولد كبر.. زعلان منى ابـن الكلب.

قلت : ما انت غرقته بالطبيخ. انتفض مـن أمـامى كفأر ملسوع. وصرخ : ما انتى السبب. لم أرد، فذهب إلى الزريبة - وكان العصـر يـؤذن - سحب البهائم وركب الحمارة. قال : بيقول عايز يسافر. لكنه بعد أيام ضحك عند رؤيته عرفـه عائدا أثناء القيلولة بهدومه كامرأة غاضبة.

كلهم طماعين خدوا ورثهم مرتين فـى نصـف فـدان. ومحاسن أكتر منهم بتطلن ٥٠٠ جنيه مهر بنتها.. دى قذعة هوه احنا غرب. ثم سكت مرزوق وأكمل.. أنا اتجوزت سنة خمسة وأربعين بـ ٧٠ جنيه.

قلت : الزمن اتغير وعدى ييجى أربعين سنة.

قال : لأ ٣٥ بس.

مرزوق تاجر شاطر. سألنى فى الليل عن واحدة تصـلح لعرفه من أقاربى. ضحكت وقلت له : بكام؟؟!

امتعض قليلا: على قدنا.

أتشترى جاموسة؟

اصطحبتهم إلى أقارب أمى فى شنبارة الميمونة.

نوال طويلة ككافورة.. ممصوصة قليلا. لكن غدا تمتلئ.

أبوها يملك فدانا ودارهم واسعة. وهى البنت الوحيدة على ولدين.

ووافق عرفه بعدما ردد مرزوق كلاما عن أصول الناس. وبأن الزواج ليس بيعا وشراء. وأنهم لم يشترطوا علينا.

حضرت بهيه الفرح وكادت تعرقل الزواج لـولا حكمـة الشيخ عبد التواب.

لماذا عرفه غير فرح؟

ربما لأنها سمراء قليلا.

أحب المشبك والحلوى الطحينية وأضـغط اللبـان بـين أسنانى. صارت نوال تشاركنى فى مط اللبان وتقـول : يـا خالتى بس كده حرام. أقول : يا بت الخير كتير. إيه يعنـى حبة رز ولاّ كام كوز درة.

لهلوبة نوال فى شغل الدار.. رغم أن محمد ما زال صبيا إلا أنى أحسست أنى حماة نوال.

ربما تكون أشطر منى فى شغل الدار والغيط. ماذا أفعـل وظلام هذه الدار يقبض القلب. أذهب إلى أبو شعبان البقـال حين تكون نوال فى طريقها إلى مرزوق وعرفه فـى غـيط الوقف.محمد مازال فى المدرسة وإبـراهيم بجـانبى علـى المصطبة يشد جلبابى، يلوك الحلوى فى فمه ولا يلعب مـع العيال. أُرغَبه فى العيال واللعب. قد أوشـك علـى دخـول المدرسة. لكنه يخاف. يتطلع لمن يصعدون المصطبة طالبين من أبى شعبان السافو والصابون والسـكر. كلماتـه غيـر مفهومة. يضحك عليه أبو شعبان. يغازلنى بكلام محسـوس عن فحولته ويقال من مرزوق وأنا شـابة. أضـحك وأقـوم منادية على إبراهيم. كلهم بالكلام يؤكدون بأنهم تيوس. وهم ينامون منذ أول الليل كمرزوق تاركين مـؤخراتهم عاريـة. أنت يا أبو شعبان تضاهيه فى العمر. كلامك حلو. لكنى لـن أنام تحتك أبدا.

يرحمك الله يا على.

فى المستشفى الأميرى بالزقازيق نام مرزوق متشكيا من خصيته. كل يوم أجهز دجاجة محمرة نائمة فـى حلـة أرز وحلة صغيرة - مغلقة بإحكام - فيها شوربة. الخبز أشـتريه

طازجا من أفران الزقازيق.. بجواره على السرير أجلـس. أُقطع له كى أُطعمه. فيزجرنى : يا ولية كده قدام النـاس؟؟؛ يعزم عليهم. ويقول : كفاية خلصتى الفراخ. أضحك.

أعود بالفاكهة المكومة فى الكوميدينو الصاج الذى بجواره للعيال. مرة آخذ معى محمد وأخرى إبراهيم. ولـم يـذهب عرفه غير مرة واحدة بصحبة نوال. كان مرزوق متضـايقا من رقدته. يستند على كتفى إلى الحمام. أسأله عما فعلوا بـه فلا يرد. ينظرنى بخبثه ويسكت. أقول لنفسى مـش مسـتنية منك حاجة. ألتفت إلى الرجل الذى أشار إليه، رأيت عبـاءة بنية اللون فوق جلباب مكوى. شعره أبيض محلـوق بعنايـة ويغادر العنبر. عرفت أنه عرض على مـرزوق أن يتـولى المسجد الذى بناه أسفل عمارته هنا فى المنتزة.. مقابل راتب شهرى. أحسست أن الراتب كبير من خلال فرحة مـرزوق باستعادة كل كلمة. قال أنه تعب من الشقاء في الأرض وجاء دور عرفه ليتحمل المسئولية. وسألنى هل أعلم أنه لم يأخـذ راتبا منذ كان فى الجيش سنة ٤٨؟. كان الرجل يزور أحـد جيرانه - على السرير المجاور لمـرزوق - ولمـا أحـس بصلاحه - كما يقول - عرض عليه ذلك.تخيلت معيشتى فى

الزقازيق وسط الناس التى لا تعرف بعضها والخبز الطازج والطعمية والفكاك من طحلة. فرحتُ لما أخبرنى مرزوق بأن الحاج يشتغل جزارا وأنه سيمدنا بغداء كل يوم. تخيلت قطع اللحم الكبيرة مطهية ونائمة وسط حلة مليئة بالشوربة. كـأن مرزوق يود لو يرفس السرير والمرض ويطير إلى الحاج.. أخرج ورقة مطوية بعناية من حافظته وقال العنوان أهه. قال لى الولد الشحط ذو البنطلون المحزق، ابن الحـاج، روقتـى المطبخ.. هززت رأسى بنعم.

قال : ومسحتيه؟. لم أرد.

قال : روحى إمسحيه الأول.. شاطرة تشيلى الحلـة وتجرى. وضعت الحلة على الترابيزة فى وسط الصالة. سحبت الخيشة وجـردل المـاء مـن الحمام.

عقدت طرف جلبابى الأسود، رفعته حتى ركبتى. دلقـت الماء على الأرض بضيق. درت بالخيشة على البلاط، الماء دافئ يلاطف أصابع قدمى.

التفتُ كان الولد عند الستارة متنمرا، ومنتصبا يكاد يتمزق بنطلونه الضيق. ارتعشتُ وضربت الماء بقوة. علا الـ رزاز وطرطش هدوم الولد.

قال : على مهلك يا حلوة.

قلت : اطلع لم أخلّص يا أستاذ.

اقترب وتحسس ظهرى بوقاحة.

قلت : هانده على الحاجة.

قال : نامت ومش ح تصحى.

كدت أصرخ. كتم بيديه القويتين فمى. انحنى تحت ساقى طالعا بيديه من تحت الجلباب واصلا حتى ردفى العـاريين. ارتعشتُ مع تقبيله الهمجى، لحمى بين يديه يكاد يمزقه. فتح بنطلونه.

فانهرت على بلاط المطبخ البارد.

علمنى محسن كل الأوضاع على سريره فى آخر الشـقة. كان يطمئن أولا على مفعول المنوم مع أمه العجوز ثم يجئ ويطيل معى. أتفجر شوقا ورغبة. منذ على لم أذق ذلك. لـم يحتوينى أحد بهذا العنف. يضرب مـؤخرتى ويتلـوى. ثـم يمتص الحلمات كطفل صغير يناجى أمه. ربما كان محسـن فى عمر عرفه.

ربما أكبره قليلا.

ولما سألته عن سر إطالته. ضحك قائلا : دا سر.

عرفت السر عندما خبط الباب - ليلة - وكان مـرزوق نائما. فتحت فرأيت محسن يتمايل نشوانا أو ربما مسـطولا، أنفاس المعسل تفوح من فمه.

سحبنى بقوة غير متوقعة، ودفعنى أمامه إلى الدور الأخير فى العمارة. نط شبح فى الظلام وأحكم إغلاق الباب. فزعت وتحشرجت صرخة فى حلقى. وشاهدت منقدا معدنيا وسـطه جمرات متقدات ودخان خانق يكتم الـنفس.. الجـوزة ذات الخرطوم تتنقل بينهم. ضوء واهن فى ركن السطح يشع على مجلسهم فيبينون أشباحا فى الظلام. سحبنى محسن إلـى أودة مفتوحة. تراجعت غير راضية. سمعت كلمات وقحة وهـذر سخيف. تلويت على السرير رافضة خلع هـدومى. انهالـت لطمات محسن على وجهى وكل جسدى. خبطته فى صدره، فاصطدم بالحائط.. تحوط حول الباب شابان واقفـان. كـل واحد يضع يده فى وسطه.

تلويت على السرير عريانة، بعدما خلعوا عنى ملابسـى بهمجية ووحشية لا أصدقها. عيونهم تثقبنا أنا ومحسن.

خشب السرير يرد ساقى بقوة. أحس بمحسن كلعبة تعمل بزنبلك من فوقى وأنا قد تحولت إلى جثة لا تعى. لا تتأوه، لا تحس.

تفلت عليهم جميعا، انحبست دموعى. ريقى فـى حلقـى مراً. بينما كانوا يغرسون أعمدتهم فى شـقوقى. ينتزعـون اخضرار الأرض من قلبى. أصير صحراء واسعة بلا نهاية. أعمانى التعب فرحت بعيدا أحتمى بالوالدين محمد وإبـراهيم ومرزوق مطأطئ الرأس لا يرفع عينه. دفنت رأسـى بـين فخذى ناظرة للظلام خارج الأودة. الدخان المتصاعد مازال. يضحك محسن وتتبادل الأكف.. أسـمعهم.. ألملـم المـلاءة الوسخة حول جسدى.

: عملت إيه فى الجمرك؟

: كان صعب.

: امبارح عديت بخمسين حتة.

: وأخبار اللون؟

: كان تحت فى قاع الشنطة.

: عديت بيه؟

: أصلك خيبة. ح أعرفك عليهم.

: لأ يا عم. أنا هتاجر لحسابى.

: السوق تساع.. من الحبايب ألف.

تسحبت من الأودة على أطراف أصابعى. فتحت البـاب واندفعت إلى السلم المظلم. هم أحدهم ورائى.

سمعت ضحكهم : كفايه.. انت لسه ما شبعتش.. يا تور.

الطاهر

أنا الطاهر مرزوق وسأظل.

رغم دق المسامير فى رأسى.

حجر الطاحونة يدور، رأسى تـدور. أقطـع الطرقـات المظلمة أتعلق بمؤخرة العربات على غفلة السائقين ذاهبا لأى مكان، يقربنى منكم.

أصحو من النوم وأمد إليك يدى.. خذينى يا أمى. أنت يـا بهيه أمى.

وأنت يا أبى.. أبى، مد يدك.

لا تضربنى يا عرفه.

فكى الغمامة يا زنوبه - قليلا - من فوق عينـى أبـى، طبطب على كتفى وخذنى فى حضنك.. أنا جائع.. متعـب.. حزين والدنيا تسقينى مرها.

تضحك البنت الفائرة على سقالة الخشب، نازلة بالقيروانة الفارغة.

أحمل أسياخ الحديد على كتفى طالعا إلى وجيه.

عين البنت جميلة وثدياها يهتزان مع كـل خطـوة. فـى التقاطع الذى يتبادلان فيه القيروانة. لامس الولد ذو الشنبات ثدى البنت، رافعا فوق رأسها حمولـة الخرسـانة، متمليـا جسدها أثناء الصعود.

تقابلنا أنا والبنت عند التقاء السقالتين. يمامتـان تحطـان تحت الجلباب، شجعتا يدى أن تطير وراء واحدة.. أمسكتها، طريه كالمهلبية، ارتجفت وقفزت خائفاً أن يلحق بنا الولـد. لكن ندت عن البنت صرخة قصيرة مفاجأة الأسطى شـتمنى بأمى. ولم يرد وجيه. كان فتحى يعدل الأسياخ على الأرض ولم يسمع. عند العودة. سرنا فـى شـوارع الزقـازيق أنـا وفتحى، تناولنا بأجرتنا من الكباب والكفتة فى أحد المطـاعم على العشاء. أقنعته أن يتجنن مثلى، تملانى قليلا، كنت أبلع قطع اللحم دون مضغ جيد. أوشك الكباب على الانتهاء ولـم أصل للشبع. قال فتحى : الحمد لله. وتراجع بمقعـده قلـيلاً فالتهمت كل ما تبقى أمامى. ضحك فتحى وقال : يـا أخـى نفسك مفتوحة قوى؟! أعلم أنه يقصد البنت.؟ قلت : أعمل إيه البنت حلوة. سألنى عن وجيه وكيف تصرف معى. قلـت : سمعنى موال عن الحلال والحرام والدنيا والدين.

قال فتحى : وجيه دا شيخ فى النصايح.. مرة اختفى مـدة وكنا فى الشغل.. مع بنت شحاته عدت علينـا.. ورجع يزرر بنطلونه.

أنا وفتحى توأمان.

يضربنى وأضربه. قذف بفـردة حـذائى إلـى الشـجرة ليغيظنى، فأقسمت سوف أخبر أمه. اضطر أن يتسلق الشجرة رغم أنفه. فى الأعالى اصطدته بالطوب.. نزل وفر ورائى. كان فتحى فى ذلك الوقت أقوى منى وممتلئا عنى.

لكن دوام الحال من الـ.....

ليلتها ظل يتطلع بوجهه القمحى المربع لى ويضـحك يـا ويلك من أختك. فى آخر الليل نمت بجوار فتحى على سريره حزينا. قالت بهيه :

يا إبنى الاعدادية وسقطّتها. شغل فى الحديد مش نـافع.. يلف الواحد وفي الآخر ما يسعهوش غير بيت أبوه.. ارجـع لاخوك عرفه.. بكرة أبوك يرجع.. وعرفه اخوك.

قلت : ويضربنى؟

قالت : ابطحه ويبطحك وروحوا المركز ولاّ روحـوا فى داهية. أنا تعبت.

كل الأبواب قد أغلقت يا بهيه الآن.

البنت وأمسكت ثديها وضربنى المعلم. وضـربت عرفـه بالطوب فى البلدة. اضربينى يا بهيه ولا تغلقى باب محبتـك فى وجهى أنا الطاهر مثل فتحى.

ترى لو فعلها فتحى تطردينه.؟

تسحبتُ على السلم المظلم بعد قضاء الأمس بين المحلات والناس وعربات الأحذية فى شارع البوستة.. خاوى الـبطن أمر من أمام المطعم الذى أكلنا فيه الكبـاب، ليلـة أمـس. أستريح فى الحدائق العامة، شارع الجنايين. بعد يوم طويـل بلا هدف. لن أذهب لعرفه ولن أعمل فى الحديد. ولن أبيـت عندك يا بهيه. هنا بين الشحاذين والجائعين أنام. ورائى أحمد عرابى على جواده رافعا سـيفه وكـل اللصـوص تتصـيد الخارجين من المحطة أمام عرابى وأمام الله. أعطانى واحـد نصف سندوتش تبقى منه. وسـحقنى البـرد رغـم تـداخل أعضائى ببعضها. سألت نفسى هل الزقازيق بمائـة وجـه.. تسحبتُ.. ظلام السلم يبعث على الوحشة ولا صوت. لـيس غيرك يا أبى. يسد جوعى. منذ أمس والبـرودة لا تفـارق جسدى. أطرق الباب خفيفا. يغطينى ظلام السلم. انفتح الباب بهدوء. خرج شبح لم أميزه وبعدها لم أميز شيئا.

دحرجتنى ضربة فظيعة. طقطقت لها عظام كتفى وغبت عن الدنيا.

أفقت على وجه زنوبه، ورائحة البصل تملأ خياشـيمى. أبى قاعد على حصيرة بعيدة ينظر لى. غطت زنوبة محمـد وإبراهيم ومصطفى الرضيع. ابتسم أبى عندما فتحت عينى.

وقال : حاسس بإيه؟

: مين ضربنى؟

: إنت كويس؟

: أنا زفت.

: الحمد لله.

لو أنتفض. أكسر ما حولى. أضـرب وأسـب. وأرمـى بنفسى إلى الشوارع.. لو أستطيع تحريك كتفى.

: مين ضربنى؟

رد أبى : أنا.

صرخت ألما ليه؟

نظرت إليه زنوبه بتأنيب. نظرة لم أفهمها وقتها. اسـتدار أبى وشد الغطاء. أعدت زنوبه نومتى بجوار أبـى. فرشـت الأرض لى. شدت طرف الغطاء من فوق أبى ورمـت بـه على.

أسكتت بكاء الرضيع.

ربما ألقمته ثديها. انطفأت الكهرباء وعاد الظلام اللعين.

قبل أعوام.

جرنى من يدى إلى الزريبة.

كنت صغيرا.

ليلتها رأيت الشرر فى عينيه.

ليس أمامه سوى الخلاص منى أنا عقدته الوحيدة.

قال : الموضوع بسيط. طلقة واحـدة مـن الفـرد سيطلقها ويستريح منى ويريحنى.. أخذ يحفر فى الزريبة حفرة صغيرة بالفأس.. وقـف أمـامى مضيقا عينيه. صرير أضراسه أشعرنى أننـى هالك لا محالة. خرجت من فمه الكلمـة. كـل كلمة طلقة. كل حرف تك.. تك. بعدها لا شئ.

حفرة صغيرة تسع إثنى عشر عاما.

جريمتى إهمال المدرسة. ضربى لأخـوتى.. ولزنوبـه. عمر طويل آت، طواه الخوف فى لحظة. حين حفـر تحـت قدمى وأخرج الفرد.

قال : ح تاويك هنا لا حس ولا خبر.

نفخ فى الفرد ومسحه بخرقة. نـادانى تـراب الزريبـة والخوف والسيدة اللابسة السواد عند قبر أمى. قبل عـامين قعدت عند قبرها. كانت قدماى قـد تعبتـا مـن الـدوران واستقرت رأسى هناك.. وحدى.. الشمس تميل إلى المغيـب وقرص دموى أحمر ينطبع فى القلب. كان لسانى يقرأ الآيات القصيرة.. وأراها مرتاحة لصوتى. تقربنى منها. تمنيت لـو أضع رأسى فى حجرها.. فى ثوب أبيض تخرج من العتمـة آخذة بيدى تجاه البلدة تسلمنى لأبى وتنهره. قالب طوب مـن الحجر ارتطم فجأة بالمقبرة. مر بجوار كتفى. تلفت ورائى لم يكن أحد. سحبنى الحنين إليها، فأعدت الآيات. تلاه نصـف حجر. قلت لابد أحدا من العيال يحاول تخويفى. عندما تلفت لم أر أحدا. قرأت (إذا زلزلت الأرض زلزالها).

حاولت استعادة أمى. لم أفلح. دب الخوف فى قلبى. قرأت حتى انتبهت - فجأة - على قامة هزيلة لسيدة عجوز ملتفـة بالسواد.. وقفت على مقربة منى.

قالت : إيه اللى جابك هنا؟!.

قلت : أنا أقرأ لأمى.

نهرتنى : متجيش لوحدك فى وقت زى ده.

كلمات آمرة سحبت قدمى لأول الطريق.

بعد خطوات قلائل التفت. لم تكن.

فى الضحى نزل أبى للمسجد وجلست زنوبـه بجـوارى تسألنى عن سبب مجيئى فى وقت متأخر أمس. ولماذا تركت عرفه. لم أرحها رغم صوتها الذى رق لحالى حيث لم أجـد ما أقوله.

ووجدتنى بعد أيام أعمل عند عم شوقى الحـاتى. أغسـل الأطباق الوسخة وأنظف الترابيزات بفوطة مبقعة.

كان ابنه قد رآنى على كوبرى أبو خليل. أتفـرج علـى القطارات الخارجة والعائدة للمحطة متكأ بذراعى على السور الحديدى، أدور بعينى على العربات المخزنة على رصـيف فرعى قديم. قميصى وسخ وبنطلونى مكرمش. انتبهت علـى واحد يقول : يا كابتن. فوق كتفه قفصين. ساعدته بإنزالهما. أخذ نفسا طويلا وقال : أستريح شـوية. نظـرت للقفصـين اللذين يعلوهما أوراق جرائد يطيرها الهواء، فتبين دجاجـات منتوفة فى أحدهما والآخر ممتلئ بالطماطم والجرجير. تطلع لى من فوق لتحت وابتسم.. قال: المحل قريب ممكن تشـيل معايا قفص. فى الطريق إلى المحل آلمنى كتفى أبدلته علـى الآخر الموجوع بعصا أبى. الطماطم ثقيلة واللئيم حمل قفص الدجاج. عرف اسمى.. وبلدتى. وأبى الذى يعمل هنـا فـى مسجد بالمنتزه. ولم أقل له أن أبى طردنى فى الصباح..

: رح ساعد أخوك فى الغيط بدل القاعدة هنا..

هوه انت بنت.

جرتنى السلالم إلى الشوارع الفارغة فى الصباح البـاكر. كنت أبتسم وأقول لنفسى ثلاثة أيام يا أبى وفتحت بابـك ثـم أغلقته دونى.

أنزلت القفص. ضرب الولد يده فى جيبه وأخرج قطعـة معدنية، وضعها فى جيبى. هدوء بارد.. هل هذا هو الشارع الذى يزدحم بالناس فى الظهيرة؟

قال : إيدك.. نرفع الباب.

نظرت للترابيزات المرصوصة والدهان الباهت.

قال : أقعد.

على المقعد الخشبى حططت تعبى.

جاء رجل ممتلئ كله نشاط يناهز أبى فى السن عرفت أنه أبو الولد.. أخرج الرجل الشولية - دون أن يلتفت لى - ثـم الفحم الموجود فى جردل قديم ومروحة صغيرة. أبدل الولـد قميصه المكوى بآخر. واضح أنه يكبرنى قليلا، لـه شـارب خفيف. طويل. نحيف. اتجه لى وناداني : يا طاهر. دخلـت. بادرنى الرجل - العم شوقى - انت بتشتغل؟. هززت رأسى بالنفى.

قال : تلميذ؟.

قلت : ساقط إعدادية.

ضحك وناولنى فوطة وسخة.

أبيت عند بهيه بجوار فتحى على سريره وأعمل مع عـم شوقى لكن فتحى قال : انت بتشخر وانت نايم.

قلت : وانت كمان.

قال : بس انت بتنام الأول.

أعدت بهيه أودة صغيرة بجوار الباب كانت فى الأصـل دكانا صغيرا مغلقا من الخارج. كنستها ورشتها يوم الجمعة. حملت كنبة غير مستعملة وفرشت المكان لى كى أنام وحدى.

أعود متأخرا كل ليلة. أجد الشيخ عبد التواب وحده صاح. فى طريقى كنت أركل الحصى وأدندن سـعيد كـل مسـاء. يعطينى العم شوقى سندوتشا لعشائى.. أقزقز اللب وأدع أيام المتاعب. أنا سيد نفسى ولا أحد يهمنى مـا دمـت مطيعـا ومسيرا للشغل. يرمى زوج أختى المفاتيح لى مـن الـدور الثانى أطلع وأقعد معه قليلا.. طيب القلب ويحبنى كـأولاده. يسألنى تعشيت؟. أقبل يدى وأحمد الله.

عاد أبى إلى طحلة معه محمد وإبراهيم ومصطفى وزنوبه كانت حاملا.. عام يا أبى وبضعة أشهر. لماذا عدت سريعا؟!

وتركتنى هنا.

نفيسه بنت تتفتح كزهرة برية تخطر بجلبابهـا الريفـى. يدب خطوها على الطريق بدلال، واصـلة لأرض أبيهـا - المجاورة لأرضنا - فى يدها سرة الطعام وفى عينيها نظرة حالمة.

عرف القلب كيف ينط راقصا عند رؤيتها.

كنت صغيرا.. أفتح الكتاب وأقرأ.. تنطق الحروف باسمها فأقعد كل يوم منتظرا مرورك يا نفيسه. ربما أكون قد حاولت محادثتها مرة لكن لم تتكرر، لظهور الولد السمج خليفة.

ظننت لبعض الوقت أنها ميالة له. حتى لاحظت ذات يوم والأرض حوالينا خالية من الناس أنه يجذبها عنـد السـاقية وهى تتقلص منه.. كنت بعيدا ظننت أنهما يهزران. إغـتم قلبى لكن صرختها العالية جعلتنى أنتفض خوفا من مجهـول آت ولم أدرك أن ذلك المساء لن يمر على قريتنا بسلام.

نزل رجل عابر من فوق حمارته.

سمعت صوته، وفر خليفة.

تلك الليلة عجيبة ودامية. هبت عائلة البشاروة وهى أكثر من نصف البلدة.. معروفة بالعنف والجلافة.. من أجل ابنتهم نفيسة حمل رجالها العصى والشقارف لتلقين عائلـة السـود درسا - لن ينسوه - بسبب قلة أدب ولدهم خليفة. منعنى أبى من مغادرة الدار. صراخ النساء تلك الليلة لم يتوقف، كما لم يتوقف نزول رجال البشاروة من الأسطح على دور عائلـة السود. يبركون فوق رجالها أمام عيالهم.. يمزقـون اللحـم. يفضحون عورات النساء. آه ما أقسـى القـوة والحكايـات المرعبة، ما أكثر الجرحى.

سقط قتيلان من السود. جاءت الإسعاف وعربات المركز وأحاطت بالبلدة لتفض ما لن ينفض أبدا. كل هذا من أجلـك يا نفيسه ومن أجلك لم أنطق.

صارت أيام الحزن بعيدة.

امتلأت نشاطا ورغبة.

ازدحمت بالمتاعب والمشاهدة.

فى محل عم شوقى الحلتى عرفت الناس وكيـف تخـرج الفلوس سهلة من محافظهم. والزقازيق الخالية فى الليـل إلا نفرا يعبرون مثلى إلى مناماتهم.

أخذنى العم شوقى إلى حجرة صغيرة جدا تحت سلم بيتـه القديم فى عزبة الحريرى. بها كنبة مفروشة ومقـدار قـدم أتحرك فيه. أضع جنبى فى الليل وأحمل كل صباح قفصـى الدجاج والطماطم فوقها حزم الجرجير والبقدونس. رغم أنى كنت مستريحا عند بهيه. إلا أنه ألح على بالاستقلال وتحمل عبئى وحدى فقد صرت رجلا وصرت أحمل الأقفاص وأفتح المحل مبكراً. كل يوم يأتى ولده، يشفى لحم الخروف ويقطعه قطعا صغيرة للشواء. أجمع العظام. أدسـها فـى صـندوق الزبالة.

فى الظهيرة والمساء يزدحم الناس. والعم شـوقى يلفحـه توهج الجمرات، يتحول وجهه فى الظهيرة إلى جمرة حمراء متقدة. يقلب الأسياخ ويضع الشواء فـى الأطبـاق. أقدمـه للزبائن، وأجمع البقايا.

نعم لن أذاكر.

ولن أعيد الإعدادية ولو من منزلك يا بهيه.

أنا حر.

فتحى دخل الثانوى العام. وأنا دخلت للشـقاء بقـدمى، لا يهم.

مادامت نقودى فى البوستة تتزايد، ولى دفتر أقرضت منه زوجك حين مرض. فلا تخافى. أعود كمـا تـرغبين كـل جمعتين إلى أبى، تسألنى زنوبه عن الكباب، تأخذ من يـدى ورقة اللحم أو كيس الفاكهة. إبنك فتحى سألنى أن آتى بعشاء المحل له. وأتناول عشائى هنا. حاضر يا فتحى.

عامان.

أحسست أنى خروف مسلوخ من التعـب. الأيـام تجـر بعضها إلى ما لا نهاية. عرفه سافر إلى مصـر. واشـتغل بإيديال ويقول أنه ساكن فى عزبة شلبى بمسطرد. صار عم شوقى يدفعنى لمسح بلاط المطعم كل ليلة بدلا مـن نهايـة الأسبوع. أصبحت راغبا فى الطيران، فـى الانعتـاق مـن الأودة المظلمة فى عزبة الحريرى. أحببت الزقـازيق غيـر أنها دمية ثعبانية تدور حوالى كل مساء. تسحب خطواتى إلى حفر وبالوعات ووجوه متشاحنة.

سوف أدوس تلك الدمية وأنط يا بهيه فى أول قطار.

من محرقة إلى مجمرة. كيف احتملت يا عرفه كل هـذه الحرارة المنبعثة من أفران الحديد؟ رائحـة تكـتم الأنفـاس وعمال ينصهرون أمام النار. كيف أحتمل؟

شدتنى يد الولد، انطلقت عربة أنابيب الغاز وسط شوارع مصر. شتاء بارد ومطر وأنا فوق العربة سعيدا بالفكاك من المسبك. فى الصباح أحمل أنابيب الغاز، أرمى بهـا لخالـد، يرصها ويجذب يدى لتنطلق العربة إلى بهتيم، المسلة، العزب القريبة والبعيدة. شرقا وغربا. كل البلاد يعرفنى عليها الولد الصعيدى. كل البلاد حلوة مادامت لا تغوص بأقـدامنا فـى الحفر.

جاء الولد خالد إلى مصر منذ أعوام.

قال : أنا من قنا. وسألنى فيما بعد. هل تعلم لمـاذا يترك الصعايدة ديارهم.. معظم الناس يظنـون أننا هواة جمع للمال. أو نهرب مـن الثـأر أو حرارة الجو.. لا يا طاهر.. نحن نهـرب مـن ضيق الأرض وقلة المصانع وكثـرة المقـاهى وليس قلبنا حديدا. نحن نتفجـر شـوقا للأهـل والعيال لكن طول المسافة وحبنا للعمل هو مـا يجعلنا نؤثر البقاء، أنا وجه آخـر للبحـراوى. كأننا وجهان لعملة واحدة. فى البداية استأجرت حجرة هنا مع أقـاربى الـذين يتـاجرون فـى الأقمشة. يلفون البلاد. يبيعون ويكسبون.

سألته : وليه متشتغلش معاهم؟.

قال : لازم رأس مال. ثم أنا متعلم ومعـى دبلـوم زراعة.

قلت : وأنا ساقط إعدادية.

قال : مش مهم، الهم واحد والملل مشـترك، ومـا قدرش يا بووى ع الانتحار.

يقول كلاما حلوا عن أيام زمان.. يتفجر شوقا ويتألم مـن أجل أرضهم فى قنا.. أبوه الذى يستأجر أرضا مازال متعبـا وأصحاب الأراضى يتقاسمون معه المحصول ولا يتقاسمون التعب.

: ماقدرش أكون فلاح يا بووى.

كأنه يصرخ فى وجه السماء حتى فرت الدمعة من عيني. الأودة التى تقاسمنا سكناها فوق سطح بيت بمسطرد، تتبعثر أمامها عجلات الكاوتشوك وعلب فارغة، وعلى السطح أمام الأودة تفر الفئران كالسهام.. نشرب الشاى بعد العشاء.. يقعد خالد على حجر أبيض، أفترش الأرض أو أستند على سـور السطح ناظرا للبيوت العالية من حولنا. تلك الشوارع التى لا تتجاوز بضعة أمتار تجعل البيوت والناس فى عراك دائـم.

تنظر خلسة على شبابيك ونساء بعضهم؛ يصمت خالد متفكرا فى حالنا.. فى أهله.. فى الصعيد.. تخرج زفراته حـارة. لا أعرف الكلام الكبير الذى يقوله خالد، وأن كنت أحس بآهاته ولا أنسى.. مقدرش أكون فلاح.. ما قدرش.

ذات يوم تكاسلت متمارضا. كنت أرغب فى السفر لبهيـه أختى، زجرنى قائلا : المهم يكون معـاك قـرش.. عشـان تعيش.

آمنت بكلامه.

كل يوم كنت أعود بعشرين جنيها فـى محطـة مسـطرد الرئيسية للغاز الطبيعى. كانت مهمتنا تفريغ العربة وتحميلها.. وانتظار السائق كى ننطلق إلى بلاد بعيدة وقريبة. لكننا نحضر مبكرا قبل السائق نحمل ونفرغ عربات أخرى بأجور إضافية.. وفى المخازن التى نسافر لها نساعدهم أيضا فيعطوننا. نأخذ من هنا ومن هناك.. عفريت يا خالد وأنا معك.

لما وجدت فتحى عند أخى عرفه يتناول العشـاء. نطـت الفرحة فى قلبى، رغم أنى متعب ولى ما يقرب من أسبوع لم أر عرفه. إلا أنى بعد تناول الشاى جذبت فتحـى مـن يـده فرفض.

قلت : نتمشى شوية.

أكلنا المهلبية من عم أحمد الواقف بعربته الخشبية علـى كوبرى مسطرد.. أثرثر عن شغلى بالمسبك وفرارى علـى ظهر عربة الأنابيب و ..... وفتحى ساكت ينظـر للبعيـد.. يهز رأسه فقط. سألت : مالك؟

قال : مفيش.. أنا حكيت لك عن المشتل؟.

سكت لعله يخرج عن حزنه ويتكلم.

قال : مشيت فى شارع الفرن بتاعكوا رايـح جـاى أسأل عن شارع خالد بن الوليد.. ولا مجيـب.. لقيت حداد مسلح فاشتغلت معاه.

قلت له : الشارع اسمه أسامة بن زيد. ثم إزاى تيجـى من غير عنوان؟!

ضحك قائلات: طلعت فى دماغى.

تركته يستكمل عن مبيته فى مشتل الزهـور ثـم تمـرده ومحاولة التصعلك حتى وقع فى يد أحدهم. إذ شاهد وعـرف كيف يتحول الرجل إلى امرأة وسخة طالبا العيب.. وكيـف عاد فى عربة أجرة، نفس المشوار الذى قطعه.

عرضت على فتحى أن يشتغل معى.. جاء مترددا.. قعدنا فى الصباح الباكر أمام محطة توزيع الغاز التى تبـين مـن الخارج كبنزينة قديمة للجاز.. فى البر الآخر للسكة الحديـد عند شارع بهيه. تدخلها كل وقت عربة نقل تجر مقطورتها، يسبقها الغبار والضجيج، يرفع السـائقون أيـاديهم بالتحيـة لزملائهم فى الغرزة المواجهة للمحطـة، يفترشـون طـوار الطريق.. يشربون الشاى وأنفاس المعسل - أحياناً - أقعـد معهم بلا كلام. غربة مازالت فى قرار النفس تسيطر عليهـا بالهزر والضحك العالى. يندفعون بنشـاط نحـو المحطـة. يلكزون بعضهم.. ويستنهضون قوتهم وإقبالهم على العمـل. شربنا الشاى بعيدا عنهم كما يرغب فتحى الذى لم يكن قـد اكتشف سر أنفاس المعسل بعد.

ثرثرت عن خالد وقوة احتماله وكثرة المتاعب وضرورة الأسلوب اللين للنفاذ وسط الناس الحديد لكسب رضاهم. أكثر من ساعتين ظللنا قاعدين أما المحطة ولم يأت سائق عربـة الأنابيب التى نعمل عليها، على غير توقـع نهـض فتحـى ورفض الفكرة نهائيا. كان خالد فـى الأودة التـى تقاسـمنا سكناها مريضا. حاولت البقاء معه. قال : شوية أنفلـوانزا..

رح أنت. ذهبت إلى فتحى عند عرفه وخرجنا. وحتـى الآن بلا فائدة. قلت لنفسى لا ينفع مع خالد غير فتحى.. يتناقشانت ولا يتعبان حتى أجهز الطبيخ مادمنا عاطلين اليوم والحمـد لله.

أمسك عرفه بظهره وكح. تفل بلغما أسود.

قلت : مالك.. تعبان؟.

قال خالدج : إجمد يا جدع.

تناول من عرفه الأنبوبة. تمايـل مقلـدا مشـية عرفـه المتكاسلة.

فى المساء أنعشت عرفه الجنيهات التى دخلت جيبه وأخذ يحسبها ويضرب فى أربعة أيام جمعة فى الشهر.

قلت : حرام انت ضامن عمرك؟.

قال : أنا معك كل جمعة.

كنت أعطيه - قبل انتقالى للسكن مع خالد - خمسة عشر جنيها مقابل نومى وعشائى.. يتعلل ويتردد. تمد نوال يـدها وتلتقط الفلوس.. أضحك.

تقول : معك كمان؟.

عرفه يزعق فى نوال.. يا ولية أنا الكبير ومسؤول عنه.

أضحك.

ترد نوال : انتم إخوات.

أعطيها أكثر وأطالبها بعشاء دسم. يلتقط عرفه الشبشـب ذاهبا للمسجد ويتأخر..

حالما تعد نوال الشاى يكون النوم قد غلبنى.

: إيه رأيك.. تتجوز؟؟

: ها تجوزنى يا عرفه؟!

: إسم الله عليك.. هوه أنا أبوك.

: طب ها تساعدنى؟؟!!.

عرفه يقصد الفلوس والجمعيات التى أودعتهـا البوسـتة. كلما سألنى عن ادخارى. أقول مـش عـارف.. أحـب أن أغيظك يا عرفه.

أحسست أن برأسه شيئا. لذلك يلف ويدور.

قلت : خليك صريح.. أصرح لك.

قال : عندى عروسة.

قلت : ماشى.

قال : معاك كام؟.

قلت : لما اشوف العروسة.

فى جلسة عائلية. أسند أبى ظهره على كنبة فى بيت والد العروس.

كنت قد سافرت بصحبة عرفه إلى طحلة. أخبر أبـى أن والد العروس هو عبد المولى الجمل.. جارنا القديم. قال أبى : عبد المولى الأقرع.. ابن خالتى خضرة.

رد عرفه : الآن له بيت فى عزبة شلبى وراءنا بشارعين.

قال أبى : بس ده ساب طحلة من تلاتين سـنة. وامـه ماتت من زمان.. كان فى الجيش متطوع علـى ما أظن.

قال عرفه : الوقت بقى صول.. بس فى الداخلية.

دخلت العروس علينا بأكواب الشربات. حلـوة متـوردة الخدين. عرفت وقت شراء الشبكة أنها أكملت سـتة عشـرة عاما وشهر. خرجت من السادس الابتدائى. قالت لـى فيمـا بعد: بس انت كبير.

قلت : مش بكتير.. عندى اتنين وعشرين سنة.

أبى فى جلبابه الكشميرى وطاقيته الصوفية وشاله الأبيض كان ملك المجلس - فى قراءة الفاتحة التى لم يحضر غيرها - مد يده بعد الغداء ووضعها فى يد عمـى عبـد المـولى الجمل. دون أن يتفق على التفاصيل.

فتحى

لم يتمكن من الإضافة لأن الحزن تبدى على وجهه. طبع ملامحه بتقطيبة داكنة، هل ذكرت "خالد" بما هو باق وكـائن مستقر برغم تباعد خيوطه. تلك اللعبة فى يد لاعـب مـاهر يلهب بالسياط ظهور الدمى. نحـس بيـده دون كـلام، وإذا انجرف إليه الحديث محاولين الإمساك بخيزط متباعدة كـى ندخلها فى الإطار. يجرفنا الحديث لكل هذا الحزن. قد نفـتح أبوابا للتأويل. لكن القرائن كلها تدفعنا للتحول تفرغنـا مـن الداخل حيث لا يتبقى سوى هياكل عظمية ينخر فيها سـوس الحياة. تراه كان موقنا مثلى ويوارى مدركاته القاتمة فى بئر نفسه، لا يرغب فى الكلام. أم يهـرب بعيـدا عـن ثرثـرة المحزونين.

قلت : تعرف. جوز عمتى خلع خواتم الميتـين فـى حرب ٤٨ ودخل البيوت اللى سابها أهلها. شال على قد ما قدر. لم يندهش. إنمـا صـر علـى أضراسه وتفل على الأرض.

قال : جايز كانوا ميتين من الرعب. وزاحهم برجله. أو مشى فوقهم.

قلت : جايز.

قال : فى الحرب كل شئ جايز.

قلت : وفى السلم لأ؟؟!!

قدم الطاهر الشاى أمامنا وقال : اتخانقوا على مهلكم، قام إلى وابور الجاز النحاس الأصفر دفع بالكباس فـى صـدر الوابور دفعات متلاحقة فانتظمت شـعلته. أذكـر أن جـدى مرزوق قال فى الطريق الزراعى الواصل من الغـيط إلـى الدار. أنهم كانوا يقتربون - أثناء الحرب - من المدفع جيدا، كأنهم يتوحدون فى جسد واحد كى ينطلقوا دفعة واحدة لـولا الدانة الخائنة ... عند عودته لرفاقه بالماء. رآهم جميعا قـد تناثروا.. يقول جدى أنه سقاهم - بالرغم من ذلك - واحـدا واحدا.

أفاقنى خالد بقوله أن أخاه الكبير يعمل هنا فـى مصـنع الحديد والصلب.. يندهش قبل أن ينطق.. صار مدير المصنع يردهم عن العمل إذا تأخروا خمس دقائق. حتـى المهنـدس الشاب صار يتنطط عليهم ويزجرهم.. كل كلمة بالخصم من المرتب حتى لو كان إبداء رأى. أما من ينصب نفسـه دور زعيم المتضررين يتم تسوية معاشه. العمل ليس فى حاجة.

قلت : جايز العمال اتعودوا على البلطجة فى القطاع العام.

قال : وهيتعودوا على الذل.

قلت بص للمستقبل.. أنت بتتعب فى المصنع بس بتلاقـى عائد. تقدر تتجوز وتعيش. قال : ممكن بس لو رمشت بعينك من غير إذن يرفدوك.

كنت أحاول تجميل البرواز. استعادة خالد من جب أحزانه ولم أقل له أننى أتألم من أجل وجيه أخى فقد صـار ينسـى كثيرا، ربما يكون قد ترك تركيزه فى المصنع الذى يعمل به أمينا لمخازنه بمدينة العاشر. هل يعلم خالد أن الماكينة عندما توقفت، خاف من توقيع الخصم إذا لم يسلم إنتاجـه كـاملا. حاول إصلاحها لكنها أكلت جزءً من إصبعه. لم يشتك خوفا من انقطاع عيشه. ليته لم يترك حديد التسليح.

أحسست أن مخزون الألم قد يطفو على السطح.

ومرارته مرة فى الحلق تنشع فى الكلام الذى صار يدور فى دوائر مغلقة. كلنا ننظر للإنسان.. نتألم لآلامه الصغيرة، ناسين أن الواحد منا لم يعتد حتى الآن على الآلة. لذلك فهى تنتصر لنفسها بعد طول معاشـرة تطبـع داخلنـا الـتجهم

والشرود، تمنحنا البرودة والملل. أما رأس المـال والسـوق فهما الخطان الفاصلان بين الألم وكمية الإنتاج. بين الإنسان والمؤسسة. كل شئ يمر بعادية تامـة. يختمـون أحـاديثهم بالأمثال : تبات نار تصبح رماد ،

تحدثت أمى مع زوجة وجيه أخى عن المعركة الشـديدة الدائرة بين البشاروة والسود. فأخبرتها بما عرفته من مصادر مؤكدة - وكانت تستقى التأكيد من أمها محاسن عمة أمى - أن الجرحى عددهم تجاوز الستين. أما القتلى فهما اثنين فقط قابلين للزيادة لامتلاء العناية المركزة بحالات خطيرة.

كنت صغيرا أطلق الأحكام القاطعة. والتسـاؤلات غيـر المدركة فقلت متسائلا : هل البشاروة فوق الحكومة؟.

انفردت بحجرتى، وانفرد الحزن بى. خططت على ورق الرسم ملامح شديدة السواد. برز لها رأس وتدلت منها أذرع ضخمة، مزقت المسخ.

أذكر الآن (ديروط الشريف)، بالذات قصة الرجل الـذى كان يحتمى بداره خوفا من الجموع الهائجة - بـلا جريمـة تذكر - التى تدفع عليه الباب - كما أعتقد - وعند خروجـه مزقوه بالبلط.

الآن فقط يستطيع ابن عبد التواب أن يحتسى قهوته المرة بلا هوادة حتى يسقط إعياء أو موتا.. لا يهم. مادامت الألوان الرمادية تصعد بهمجية إلى أنحاء اللوحة. تلك السحب الداكنة العابرة فوق زرع أخضر. لماذا تتوقـف متصـلبة دون أن تنحل. إنما تتجه بكل احتشاد إلى أسفل.

زميلى فى المدرسة التى أشتغل بها دخل هـذا الصـباح متكدرا يحاول عبور الحواجز التى توقف الكلام فوق لسانه. ويتراجع، هشمت حواجزه وانتشلته بلطف المنجى المبتسـم. قال بأن الدم الذى تبرعت به لوالدته المريضة أعدم.

لم تدخلنى الصدمة بادئ الأمر. إنما برزت دهشتى قليلا، قلت أن المستشفيات ربما تحاول الاسـتحواز علـى بعـض الأكياس للاتجار بها. قال أتمنى ذلك. لكن السيدة التى تشتغل بالمعمل جارة موثوق بها. دب القلق بقلبى. طلبت منه معرفه سبب إعدامه، من نفس مصدر الثقة. طالبنى بالاطمئنان. فلو كان شيئا خطيرا، يضر بالناس مثلا كالأيدز لما تركونى كل هذا الوقت. لماذا يزيد الزميل قلقى ويفجر طاقات الحزن؟؟!!

بعد أيام من الاحتراق.. جاء مبتسما وقال بسيطة بسـبب فيرسC وطالبنى بضرورة عمل التحاليل بعيدا عن الروتين.

قال طبيب : العيادة الخيرية الملتحى. لماذا أنت قلق هـل تشعر بشئ؟ لماذا تخاف الموت.. كلنـا سـوف نموت. ثم قال أن تلك التحاليل مكلفـة وغيـر متوفرة عنده. قلت لنفسى لماذا يبدأ الاحتـراق دفعة واحدة.

تساءلت والطاهر نائم بجوارى ذات ليلة. اشـترك جـدى مرزوق فى ردم البحر القديم عام ٥٥ كما يقول وكان يمـر بطاروط وميت أبو على. واشترك فى حـرب ٤٨ وسـقى الشهداء ماء على أرض فلسطين. تسلم من الرئيس الراحـل جمال عبد الناصر شهادة تقدير كأحسن مـزارع. لمـاذا لا يطلق زنوبه؟؟

ذلك الرجل العجوز الواقف على كوبرى مسطرد. استغل وقوفى مستندا بظهرى على حديد الكوبرى أنظـر للعربـات والزحام ومر أمامى أكثر من مرة ثم توقف بجوارى.. جذب طرف الحديث معى، تشاغلت لكنه ثرثر عن متاعب الشباب وحاجتهم للفلوس وعدم تقدير الأهـل لأحلامهـم البريئـة.. وأخيرا دعانى للسير معا، كنت قد تمردت على النـوم فـى المشتل ولم أبحث ثانية عن خالى حتى قادتنى الصدفة وحدها - فيما بعد - للوقوف أمام مسجد السنية ورأيتـه. دعـانى العجوز للمبيت عنده تلك الليلة.

هذا العالم المغلق بأقفاله على أسرار عديدة. لمـاذا لا أفـك مغاليقه؟. لماذا أخاف من الغرباء؟. هل يمكننى الاعتماد علـى نفسى بعيدا عن الأهل، هل سأبحث عن خالى ثانية؟؟. خمسـة أيام أنام فى المشتل الذى أخذنى إليه صـاحب البيـت عنـدما توقفت فى الطريق واشتغلت مع حداد المسلح فى بيتـه علـى سبيل المساعدة، فقد غربت الشمس ويئست من الوصول لخالى.

تذكرت وأنا راكب عربة السرفيس - مع العجوز - عـم فايز خفير المشتل وكيف خوفنى من النوم وحدى فـى أودة مظلمة من الجريد والغاب. تساءلت كيف يعم كل هذا الظلام؟ أسمع نقيق الضفادع. هل يكون كلام عم فايز صحيحا وأقـع فريسة للصوص تلك الليلة.. لا يمكن أن يكون هذا المشـتل هو الذى أراه فى النهار، تضئ الشمس نباتاتـه الخضـراء، المزهرة، الفضية، البنفسجية.. تمنحها لونها الـذهبى. تلـك القنايات الصغيرة المليئة بالضفادع - وربمـا - الزواحـف الآن. تتهادى فيها المياه نهارا إلى الأحواض المزروعة فـى آخر المشتل؛ لا أخاف الليل ولا الظلام، لكن ذلك الاتسـاع الكبير مخيف حين أكون وحدى. قال عم فايز : أنا بـاروح كل ليلة.. ثم ذكر حكاية ولده المشلول وحكاية زواجه مرتين ولولا الإحراج لاقترض منى، فأنا مثل إبنه تماما. تحول مـا بجيبى إلى جيبه - لإحضار الدواء - بيسر ورضا.

توقف العجوز أمام أحد المحلات المغلقة، فتح بمفاتيحـه الباب الصاج. دخلنا. بحث عن زر النور. أضاءه ثم أغلـق علينا الباب من الداخل. ثرثرت قليلا عن رحلتى إلى خـالى الذى لم أجده، تطلعت للكراتين المغلقة. صار العجوز يقترب أكثر، يكاد فمه أن يلامس شفتى. كنت فلاحا بريئا لم يشـاهد من قبل فيلما مشجعا. لم يتوقع من عجوز مثله أن .....

زغدنى فى كتفى بلطف متمايلا برأسه نحوى ثم تحركت يده فوق بنطالى حتى وصل ..... كأنى أشاهد مجهولا لأول مرة. فى البداية كذبت هواجسى المجنونـة عنـدما نقـرت بداخلى شيئا فشيئا حتى انتفضت.. رفعت الباب بعنف، ناظرا بازدراء وقلت لو لم تكن عجوزا ...

هبوط الزئبق

بهيـــه

قلت : إيه رأيك يا شيخ عبـده.. الطـاهر غلبـان.. نفرش له الدكانة بالكنبة المرمية على السـطح. رد قائلا بتستأذنينى يا بهيه.. نسيتى إنـه إبـن خالتى وزى واحد من العيال. قلت وقد غطـانى المعروف من أجل أخى : فتحى بيذل فيه ويقول له انت بتشخر وانت نايم.

قال : افرشى الدكانة يا بهيه ولاّ عايزانى أفرشها له.

قلت : لأ يا خويا.

بعد شهر جاءت حماتى من طاروط لكى تقضـى معنـا رمضان. فتحت لها باب الدكانة لترى منامة الطاهر. اغـتم وجهها : يا ضنايا يا ابنى.. الله يرحمها فتحيه أختـى. فـى المساء كان الشيخ عبده فى المسجد، اقتربـت منـى - كنـا وحدنا - قالت : عشان يبقى مستريح فى مكانه يدفع لكم ولو عشرة جنيه كل شهر. تطلعت لها مندهشة كأنها تخـاف أن يأكل الولد أخى لقمة من بيت ابنها !!

قالت : يا عبيطة.. عشان أخوك نفسيته تبقى مرتاحة. وافقتها على رأيها. رغم أن كلامها فـى البـدء ضايقنى. إلا أنى نظرت إلـى راتـب وزجـى ومصاريف العيال.

وقلت : مش مشكلة.

عينى عليك يا طاهر. هل أنت مخلوق للشقاء. تسافر من بلد إلى بلد وأبوك هنا مع زنوبه يشتغل - على آخر الزمان - خادما فى مسجد.. أبوك صاحب الأرض، كانت تطلع من بين يديه الخيرات وأحلى زرعة قطن زرعها بيده وسلم على الريس بيده، يمسح بيديه البلاط.. زمـن غريـب.. ماشـى بضهره.

صرت يا طاهر بلا أم.. بلا أب، وأبوك على قيد الحياة. أخذْتَ يا طاهر تجرى ثقيل على كل الناس حتى أخـوك !! تجرى حتى وقعت عند نزولك من عربة مسرعة، تراك كنت آتيا لى؟ أنا أمك وأختك يا حبة عينى.

سلقت دجاجة وأعددت أرزا. ثم حملت الشنطة ذاهبة إلى المستشفى.. اندفعت كالمجنونة رغم محاولة عامـل التـذاكر منعى قائلا : ليس موعد زيارة. رأيتك قاعدا علـى سـرير مربوط الرأس بشاش أبيض وتضحك.. حمدت الله. قعـدت بجوارك. تمنيت أن أمسك أذنك وأشـدها بسـبب شـقاوتك وإهمالك. لكن أذنك كانت مختفيـة تحـت ربـاط الشـاش، تضحك.

إضحك يا طاهر.

واكفنا يا رب شر المصائب التى تجئ على غفلة.

بعد شهر.

قلت لأبى : ملعونة زنوبه وملعون عيالها حتى لو كـانوا اخواتى.

قال : إخص عليكى.. بتقـولى كـده فـى وشـى. واستكمل.. لو كانـت تعـرف تتصـرف فـى المستشفى وترافق الولد فى الداخلى كان.

قلت : عندها عيال وعندى عيال. هو مش ابنها اللى اتوعك؟.

قال أبى : وأخوك.

قلت مضطرة: علشان مجيتك بس.

عمل الطبيب غسيل معده للصغير مصـطفى، وشـتمنى معتقدا أنى أمه. قال أنه أخرج من بطنه كمية قشدة وطعامـا يكفى رجلا كبيرا، وكان ابن عام واحد.

قلت : والنبى يا دكتور أمه هبلة وده أخويا.

أعطى يا زنوبه بعض القشدة للطاهر كى يأكل رغيفا من خبز أبيه.. صورة الطاهر ساعتها لم تفارقنى. فـوق عربـة الأنابيب يتكتك من البرد والشرود والحياة.

لن أحضر زواجك يا طاهر. تترك أباك بين يدى المـوت يطلب رؤيتك. وتذهب لابن الجمل خائفا أن يفسد عرسك بعد دعوة الناس. حتى لو تركته وتركت ابنته، الأب لا يعـوض. أنت صغير وستبكى كثيرا - فيما بعد - على فراق أبيك.

ربما سقيته يا أبى قسوتك، فتحجر القلب.. صـدقت لـن يحضر من أولاد فتحيه أحد موتك. أنا بجانبك وكـل أولادك وأول خلفتك.. لا تحزن.. تبول فى القصرية - أمـامى - لا تنكسف. كلنا فى المرض كالأطفال كما تريد.. سأخرج.

لا أحب أن أرى دمعتك.

تذكر يا أبى أيام جئت حاملا البطيخ مـن طحلـة إلـى طاروط.. وطلب منك ناجى ابنى ماعزا.. فعدت بعد يـومين بماعز صغير.. سلبتك زنوبه حنيتك.

لا تغضب من الطاهر. لكن عرفه ليس عنده حق... نحن فى العيد على الأقل يعيد على إخوته وعلى ويراك. خمسـة عشر يوما يا عرفـه.. أنـت قلبـك حديـد سـرطان فـى المثانة؟؟!!!.

: للأسف.

: متأكد يا دكتور.

قال : واضح أنه قديم وكان يتسحب بـبطء وأبـوك يعافر.

وددت لو أمسك برقبة زنوبه وأشبعها ضربا. انهارت كل أفعالك التى عملتها مرغما. أنت جمل يا أبى.

فى الصباح أخبرتنى أم عبد الخـالق جارتنـا أن زنوبـه تركت عندهم كيلتين أرز.

وقالت : زنوبه عايزة فلوس.

نفضتَ (الحِرام) يا أبى من فوق وجهك.. بعدما سمعت ما قيل. قلت لك : جايز عايزة تجيب لك علاج. أدرت وجهـك للحائط. شفتُ دمعة فى عينيك. رجوتك الهدوء.. ملعون كل شئ.

عند عودة زنوبه للدار لا أعرف كيف نهضـت واقفـا، ناديت عليها، فجاءت. أتملى وقفتك وقوتك المفاجئة. أكانـت صحوة الموت؟. رفعت يدك لتضربها فأمسكت بيدك، شتمتها بعدما دفعتك قائلة : انت لسه فيك صحة يا راجل.

كنت تضربها يا أبى زمان، والزمـان تبـدل. مـن الآن سأضربها أنا.

ومت يا أبى رابع أيام العيد. عيـد الأضـحى. ضـحى برؤيتك الطاهر وشارك عرفه ومحمد فى تغسيلك. مـت يـا أبى.. والله.. الدنيا هذه جزمة لا تساوى شيئا. عدت يا أبـى ممسكا بخصيتيك، تكتم صراخك فيفلت رغما عنك. أدعو الله أن يريحك. تنظر أنت للسماء وتقول : هون يـا رب. تفـر دمعتى وأنا أسند سقوطك.

زنوبه تملأ الدنيا زعيقا مع عيالها بلا اهتمام.

خرجت لها ليلة موتك ضاغطة حزنى : يا بنت الكلـب.. الراجل بيموت.. اتلمى شوية.

تبتسم : طب وانا اعمل إيه، مش العيال؟.

لا إحساس بأن عمود بيتها يسقط. والبيت سـينهار فـوق رأسها. فرحة بلا شك. لا تقدر وجودى. تجمع الفاكهة مـن حواليه وتقذف بها للعيال.

أقول : معلهش يا أبى.

تنزل دموعه : معلهش يا بنتى. طول عمرى باتحمل.

زارك فتحى منذ يومين. وفى الصباح سلم عليك الشـيخ عبده وخرج باكيا، فبكيت وأنت تقول: فيه إيه يا ولاد؟. أنـا حلو أهه.

زنوبه

مرآتى الآن. تنم عن بقايا امرأة.

بيدى أتحسس عريى. تمر أصابعى بحشائش نابتة. علـى ضفتى بحر كان فوارا. ربما أكون وقحة، كثيرون غاصـوا فى مياهى وفار النبع، تضاربت أمواجه. لكن لم يفجر نبعـى حقا غير البيت جاويش على. زوجى الأول.. أول من تسلق الجسد وحط. كان خفيفا فى البدء. هذه حياة غامضـة مـن يبتهج فيها يتجلى، من يفك إطار خجلى، يولج فى الحياة. أنا بكارة لم تمسنى سوى أياد مر تجفة فى ظلام المسـاء بـين حوار مظلمة. قليلون هشوا يمامـات صـدرى، ارتعشـتُ، تخدرت قليلا وانسربت خائفة على سرى الغـامض، علـى عودى الأخضر. كان احتكاكهم بمـؤخرتى يـوقظ بعـض النشوى بأعضائى وأفر منهم إلى أن جاء البيت جاويش على ليرفع ساقى إلى عرش الأودة، يهتز سريرنا الحديـدى مـن هول ما رأى.. أتأوه وأقول أنت ملاكى وشيطانى.. أنت أول من فجر نبعى حين اندققت فى قيعانى فانهارت أمامـك كـل سدودى ومقاومتى المصطنعة. تفجر الدم والمـاء والنشـوى واللهيب. صرخت الحياة حين صرختَ لكنها ماتت.. ماتـت

فجأة مع موت طفلنا الصغير. آه يا على. حين نزعت القايش وضربت فى رغبتى المجنونـة سـحقت عريـى بقايشـك. ارتخيت لكن عيونك جلدتنى، آلمتنى على الصغير الغارق فى حوض الطلمبة، إنه راح يا بيت جاويش، هو كل من أحببت وانكببت عليه ليلا بطوله أبكـى براءتـه. خطـوه الأول.. حروف تلعثم بها لسانه وهم أن ينطق.. ابتلعه المـاء بغتـة وأنت شققت فى جسدى مسارب للدماء بعدما تعريـت لـك. تشهيت أن تمنحنى الحياة. ما أحلى الوجع. والدم المنسـاب. والرغبة المهدرة. ما أحلاك يا على وأقسى دموعك. ما أبشع ارتخاؤك وبكاؤك وحدك.. أتبكى صغيرنا، أم انهيارك أمـام قادتك، أم تبكى قادتك وانهيارك أمامي. أنت هدمتنى يا على حين تعلقت بك ألا تنطقها لكنك قلتها. أطلقتنى إلـى العيـون الجارحة والرغبة المستباحة، لحواري مظلمة تجتذبنى فيهـا خراطيم متقدة، تحاول الوصول إلى لـذة. أيـة لـذة ولـو بالاحتكاك، أبدا لم توقظ غفوتى، لم تدفئ برودتـى.. تفـرغ ماءها العكر فلا يتفجر من طلمبتي الماء. يزيق العود وسـط مجراى. ينقبض النبع ولا أرتوى بل أزداد تعطشا ورغبة أن ينز مائى حول الجسد.

علانى الصدأ يا مرزوق وأنت مهما آلمتنـى بعصـاتك وأسنانك وجنونك لم تكن أكثر من سحابة كاذبة.

وقد عبرت.

وتوزعت.

وتبعثرت.

فما لملم بقاياك أحد. لم تكن بقايا ولم يكن فى الأصل شئ - أرضك - أخذتها صدفة وتوزعت عنوة وماتت بقاياها فى أفواه تنسى أن تقرئك الفاتحة.

عرفه

عيون الناس لا ترحم.. يا بهيه أنا لا أشترى أرضا فـى مصر إلا من أجل عيالى. يرون النور. كل يوم ألف بطبـق الترمس من مطلع النهار إلى المساء.. تعلمـين أن الشـركة أصبحت خاصة. لم يرضوا بعملى المخفف، الآن أنتظر لجنة طبية. الغاز يكتم صدرى. أكح. أكح فـى الليـل ولا تفيـد الأدوية. يا بهيه نوال تبيع القصب أمام البيت. البنت فتحيـه ابنتى صارت فى الثانوى العام. تحتاج للدروس، لم أرغـب فى كسر خاطرها. تقول بهيه : كان إيه لزمته حمـل نـوال تانى؟. عندك السيد.

: أستغفر الله يا بهيه.. هندخّل فى أمر ربنا.

: نوال قالت إنه أمرك.

: أستغفر الله.. نسيت الناس ربها. نحن نسير يا بهيه فقط فى أرضـه، نسـعى وراء الـرزق.. تسحبنا خطواتنا إلى قدرنا المكتوب، ثـم مالـك أنت إذا كنت أرغب فى ولد ثان أو بنت، مـن حقى أن أرجو ولا يخيب الله رجاء العبد.مادامت النية صافية.

تقولين دائما للناس من ورائى وأمامى.. أنت غويط.. أنـا غويط وخبيث أيضا.

أبى ومات، والأرض أرض أبى أشتريها أنا بـدلا مـن الغريب.. بيعى يا نوال حقك فى ميراثك، وتعالى نجمع حلمنا ونكبره بقراريط، بجوار القراريط ميراثى.. وكله للعيال.

"محدش بياخد معاه حاجة".

مرزوق

عدت لأرتاح.

كان من الضرورى أن أوقن بالفشل وبأن للزقازيق ناسها كما لطحلة ناسها. للزقازيق أن تدير ظهرها للقـادمين مـن القرى والعزب والكفور، تشير بأصابعها الطويلة وأظافرهـا الحادة. عودوا يا فلاحين. لماذا تزاحموننا علـى الأفـران، تأكلون خبزنا وتسكنون بيوتنا، وتضايقوننا فى شوارعنا.

لكم البراح هناك.. لكم بيـوت الطـين وأفـران الخبيـز والأرض تزرعونهـا بـالغلال والجرجيـر والخيـار والخضروات. تتاجرون علينا فى الأسواق. تبيعوننا سـمنكم وجبنكم وبرسيمكم وألبانكم وأعراضكم.. نعم نحن هنا نشترى وأنتم تجيئون فرادى إلينا، فبيعوا إذن، كل شـئ هنـا يبـاع ويشترى ومن معه القرش يصيد من ليس معه، وأنـا الـذى طمعت أن تكون الزقازيق مرفأى الأخير.

لا تتعجب يا عرفه.. نعم رجعت. أم كنت تظن أنى مـت ولن أعود، تطلع إلى زنوبه ولا تسأل. لا إجابـات عنـدى. ربما تجيئك أثناء غيابى، مهما أكلت من لحمها لـن تتـوب، ربما لم أرو ظمأك يا زنوبه لكنى رويت ظمأ امرأة اسـمها فتحيه، حيية خجولة، لا تحب الهزر ولا مـط اللبـان، لـم أضربها ولم تتطلع إلا لدفئى. كانت تناشـدنى البقـاء فـى الأرض أقول لها الظلام حل يا فتحيه. تنظر إلـى الفـدانين اللذين يهفهف زرعهما وتقول.. الله. وتدعوا للـريس الـذى جعلنا نحتكم على أرض، ثم تقول رحمك الله يا أبى.

ما بينك وبين زنوبه أصابنى داء الخصية. عانيـت وأنـا صغير من البلهارسيا، مازالت آلامى تدفعنى إلـى الـدوران حول موطن الألم / زنوبه.. أعلم أنك ستفرغين أمعائى بعدما يشيعنى المشيعون تبيعين ورود فتحيه الجميلة إلى العشاق فى ظلام الليل كل من يحب.. وردة.. وردة.. ورودنا بين يديك صارت من البلاستيك، صورة لأشياء قديمة. تتبدل مع كـل زمان، مثلك أنت حين تهلك الفتنـة فـى أعضـائك، تحـت عجلات الزمن، ويبيض شعرك، ستقودين العشاق إلى أرضى تفترشين اخضرار الأرض بمجالسـهم المائعـة ورقصـهم

الخليع، يدقون آخر الليل أعمدتهم فى قلبى، تصـرخ بهيـه وهى حبيسة فى علبتها الخرسانية، ولا أحد يسمع ... ساعتها اقرأى يا بهيه لنا الفاتحة، قلبك أبيض وروحك كبراءتى وأنا صغير. ستنسين إهمالى لحقوقك. أنت أعلم الناس بزنوبـه، عشت معها أكثر من خمسة عشرة عاما ولم أعرف لها ملة.. قدماى هما اللتان ذهبتا إلى عزبتهم.. قال من أشار على بها (أهلها غلابة، أجراء فى أرض الست) والست كانت تنظـر للصوامع حتى تمتلئ وتتكوم الفلوس، ثـم تنشـغل بـدولاب فساتينها، تقتلها الوحدة فتستأجر من يمتعها. أهلك يا زنوبه لم يعرفوا غير التعامل مع كلابها الشرسة التى لا تفـرق بـين أجير للأرض وأجير ينام تحتهم؛ كلهم كلاب ينـدفعون وراء رغباتهم فى الأجراء. قلت أرفعك من حياة العزب لكنك كمن تفتحت عيناه - فجأة - بعد طول ظلام، على نور سـاطع، فارتعت تقهقرت فى الدار تنتظرين أن يحمل لـك مـرزوق الضوء والنهار والاتساع حيث أنت.. أعلم.. لم أمتعـك يـا زنوبه وأنت انتقمت.. حقا.. حين منحت أعضائى جرعـات علاج متلاحقة من سم بطئ؛ الآن.. فـاض وامـتلأت بـه الروح. أنظر إلى الناس بعيون شاردة، أذهب للبعيد شـاعرا

أنى أعود للوراء.. حيث تجتذبنى يد زنوبه وأهلها الأجراء.. كانت الهانم تضحك سائلا عمن هرب من محـيط محبتهـا القاسية.. وقسوة بقسوة، كان لابد أن تنسحق سرايتها.. لماذا أنظر الآن فأرى الست عائدة فى صورة ابنتها التـى تجمـع الحوائط وتسد الشقوق، تنادى الكلاب وتطعمهم كى يعتـادوا اللحم. لحمنا يا زنوبه أمسى طريا لا يحتـاج إلـى أسـنان صناعية كأسنان الست هانم زمان.. تلك التى تركت اسـمها واكتفت - الآن - بالهانم.. يرحم الله عليـا، كـان يجلـدك بالقايش، أنت قلت فى نوبات التجلى - القلائل - تحتى عنـد توهجى ما أحلاك يا على. كنت علياً لفتحيـه وعليـاً حـين استلمت شهادة التقدير المذهبة.. ماذا أنـا فاعـل الآن وقـد حاصرنى الألم؟ أتململ منتظرا أن يهون الله.. بحق صومى أشهرا متواصلة.. بحق غفلتى هـون قلـيلا.. وأمـت أولاد الكلب الذين يعلنون موتى منذ زمن. إدفنهم فى البحر القديم.. تحت ترابه، واتركنى فى البحر الجديد الذى سـاهمت فـى حفره بالأجرة.. كانت بهيه كبيرة وفتحيه خافـت أن يرانـى أهلها.. البحر الجديد صار قديما. أظن أنى سأدفن فيه ساحبا معى أحلام حمايا فوق برودة مياهه التى أبطأت مفعول السم،

فجعلت ميتته طبيعية.. أحس الآن بتمزق أمعائه.. لم يثـأروا فتمكنت حماتى من نيل حقه فى الأرض الجديدة وراء البحر القديم وأنا ردمت القديم.. أصبح الجديد - منذ أربعين عامـا - الآن - قديما. من سيموت وراءه يـا فتحيـه، بالسـم أو بالخصية أو بالجنون.. الكل سيموت.. سـيموت.. تعـددت ألوان موتنا بنفس الألم؛ ألن يحضر الطاهر كى أبارك لـه؟ لماذا تأخر عرفه؟! لا تقلقى يا بهيه. أنت أول فرحتى وآخر من أرى. لست متألما.. أنا حلو.. فقـط أسـندى عـودى.. الحوائط تهتز تحت يدى، وفتحيه تمد يدها.. تتعجل مقدمى.

فتحى

البنت التى تلبس البالطو الأبيض تلف رأسـها بإشـارب أبيض، بعناية. نظرت لى بطرف عينها واستمرت فى تسجيل الروشتات. حاولت التساؤل. مات الروح الانتظار.. دربـت نفسى على احتمال أية أخبار. صور مـن أحـبهم تنـادينى، أطفئ سيجارتى فى منفضة تلتهم الغبار وأعقـاب السـجائر بشراهة. البنت تكتب وتقول انتظر.. الدكتور علـى وشـك الحضور. قلت بهدوء كاذب إذا كنت تعرفين شيئاً أخبرينـى لأنصرف. همت بالكلام ثم توقفت مـرة أخـرى، انشـغلت بأوراقها قائلة لا أعرف. الدكتور قادم.

جاء الدكتور.. سألنى أنت فتحى؟.. أخرج ورقة التحليـل من أجندة سمراء؛ سطور سوداء يقابلها أرقام حمراء.. لـون الدم النازف. قال : هل تشتكى من ... أو من ... قلـت : لا أشتكى إلا من دق المسامير فى ليالٍ مظلمة. ضحك.. بانـت أسنانه لامعة. عدل من وضع نظارته وسألنى : كم عمـرك؟ قلت : واحد وثلاثون عاماً. قال بتأنٍ: إذن أنت مـن مواليـد النكسة. قلت : أرحنى يا دكتور.. التحليـل إيجـابى. قـال

مبتسماً ولو كان إيجابياً هل نتوقف عن الحياة؟!. لم أقل له أن قلبى يرغب فى التوقف بعد تعب على حافـة الهاويـة، وأن الولد الذى يرافقنى يحاول أن يجتذبنى إلى شوارع الزقازيق ليلاً كى أصفر بلا معنى. أنفث الدخان. رغـم أن صـدرى يبغى طراوة النسيم. أوقف الدكتور شرودى قـائلاً : نعـم.. إيجابى.

الطاهر

ليلة عرسى اشتريت علبة سجائر كليوباترا من محل بقالة قريب من بيت عمى عبد المولى الذى سأتزوج فيه. بعـدما نزلت متعباً، وكانت مبتهجة، قميصها الأخضر القصير كـان منحسراً عن فخذين ممتلئين ركنت برأسها علـى صـدرى، تبعثر شعرها مهوشاً. قامت إلى المرآة. أخرجت من علبـة الماكياج إصبع الروج. لونت شفتيها، وبالمشط انساب شعرها طويلاً.. كنت أرقبها بينما فتحـت يـدى درج الكومودينـو، تلافت سيجارة وأشعلت عود ثقاب؛ انتفضت – فجأة – كقطة متنمرة اختطفت من بين شفتى السيجارة وأطفأتها بعصبية ثم رمتنى بنظرة لائمة، قالت : انت بتشرب سجاير من إمتى؟؟ قلت : الليلادى بس قالت بشكل قاطع قهرنى : لا اللـيلادى ولا غيرها. تبددت كل رغبتـى فيهـا. آلمتنـى بنظرتهـا وعصبيتها وابتعادها عنى واضعة يدها أسفل ذقنها مسـتندة على حافة السرير. تمليت ملامحها المقطبة، ولأنى لم أعتـد شراء السجائر ولا تدخينها فقد تذكرت الفلوس التى دفعتهـا، ووضعها البقال فى الدرج. واستكنت

وضعت نجلاء بعد طفلنا الأول – حمادة – فى الفجر، بعد تعب وصراخ، توأم. ولد وبنت بعد سبعة أشهر من حملهـا، كانت بطنها قنبلة وانفجرت.

فى الطريق مال الطبق المحمل بالطعمية والجبن القـريش والبيض المسلوق من فوق كرسى العجلة الخلفى، كاد يسـقط فنزلت وعدلت من وضعه، أحكمت عليه غطـاء البلاسـتيك وربطته جيداً، ثم اندفعت بلا هوادة.

صباح اليوم التالى كنت أحمل التوأم فى قمـاش أبـيض واضعاً إياهما فى شنطة من البلاستيك، قاصداً المدافن. قـال اللحاد بعدما أعطيته خمس جنيهات : عمرهم قد إيه؟.

قلت : يومين بس. كانـا بـلا أسـماء فأعطيتهمـا أسماءهما قبل إيداعهما حفرة مظلمة.

عرفه

تغير كل شئ.

منذ انتقلت إلى مسطرد فى أوائل الثمانينات. فتحيه ابنتى التى كانت تزحف هنا صارت الآن فى الثانوى العام. برزت ملامح أنوثتها والخجل طل من وجهها. تحتاج أودة بمفردها. من يبنى أرضى الجديدة فى مصر؟! قلت لنفسى : يبنيها من هدم بطحله بيوت الطين وأقام بيوت الحجر. وهـدم واجهـة داره كى يفترشها بالكراسى والمعسـل وأكـواب الشـاى أو السوبر ماركت وأفران البلدى والفينو.. حتى أنت !! (تـاجر جملة وقطاعى من فرج الله للحوم والمواد الغذائية.. غداً من السودان وعبد الرحيم عمرو.. إلخ.. إلخ) توقف الحلاق عن دورانه الآن على البيوت كى يقص الشعر ويـزين الـذقون، وينتظر حتى تطيب الزرعة فيدور على الأجران.. أقام الآن صالوناً للحلاقة.. وللأحذية.. وعلب الماكياج. الفلوس ضارة بهؤلاء الناس لم لم يشغلوا فلوسهم التى تغربوا وذاقوا الـذل فى جمعها بما يرضـى الله.. يضـيعونها علـى الحشـيش والمخدرات والسهر على المقاهى حتى الفجـر، وإذا ذهبـوا للأرض ركبوا الدراجة أو الموتوسيكل، نسوا الحميـر أولاد الحمير. عقول أقفلت على جهلها ولن تنفتح

فتحى

ربما دلت التحاليل على ارتفاع نسبة الألم يوماً بعد يـوم برغم أنى منتشى بلا معنى. أنظر إلى وجهى الأصـفر فـى المرآة وأبتسم. أقول.. فيما بعد.. تجف الشفتان، يتساقط اللحم بفعل الديدان الشـرهة. هـل تعيـد – سـاعتها - المـرآة ابتسامتى؟! هل تعيد الشوارع وقع خطواتى على السـائرين فى مساءات لهوهم.. أتذكرون أنى كنت أمر مثلكم هنا.. تدب القدم مكان القدم.. ثم ينتشى الدود. قلت لنفسى وهل أذكر أنا خطوات الراحلين.. مئات السنين والوجـوه تتبـدل مخلفـة ابتسامات باهتة فى شوارع تشهد صخبهم، وأشـجار ظللـت عليهم وقت نزواتهم الليلية، حين كان وهـج الرغبـة يلفـح الأجساد. اعتدلت فى وقفتى، هندمت ملابسى، أطلقت صفيراً متقطعاً أثناء نزولى على السلم. لم ألتفت لشقة أبى. خفت أن تستوقفنى هيئته فى الصالة، دخان سجائره مازال يدور فـى المكان. : طالع برة؟ : عايز حاجة يابا؟

: ربنا يسهلك يا ابنى.

آه لو كنت تضربنى يا أبى وتمزق لحمى حتى أكرهك ولا تطالعنى هكذا كل آن ... لو.

الطاهر

بعد زواجى بخمس سنوات تزوج فتحى.

رزقه الله بندى.. ندى تبعث بشغبها الحياة. يضحك فتحى ليجهز الجوزة. يرص المعسل، نتبـادل الأنفـاس.. يخـرج الدخان مع هزرنا اللذيذ، نتذكر ما مضـى، يطيـر الـدخان وتبقى حلاوة الأيام الفائتة. أنظر إلى سوالفه التـى غزاهـا المشيب.

أقول : كبرت يا فتحى.

يقول : بقيت عجوز.

أضحك : بس انا أصغر منك.

يعلق ساخراً : الشباب شباب القلب.

فتحى

ندى والقادم فى بطن زوجتى بلا اسم سـيحتاجون كـل مليم.. أود لو يذكرونى.. بضع مئات من الجنيهات لا تكفى.

يجب أن أعمل.. أعمل.

يجب أن أكتب.

ويجب أن أرى الدنيا.

من يتزوجك من بعدى ومعك طفلين؟

قلت : طـ ـ ظ.

دست بقدمى على بدال الدراجة فاندفعت. صـعدت إلـى الطابق الخامس ألهث. بششت فى وجه التلميذ. كـان قلمـى الأحمر يخط.. صح، على كل المسائل بدون تصحيح.. أنظر إلى الامتداد البعيد خارج الشباك حيث سحابات بيضاء تتباعد تاركة سماء صافية بلا معنى.

عرفه

تلك الفوضى التى بلا معنى لا بد لها من منظم.

صحن الترمس على رأسى منذ العصر والناس لا تشترى فقط تتبادل النسوة شتائم قبيحة ويتثائب الرجـال.. لمـاذا لا يهب واحد من هذه الشنبات ويلطمهن بقوة العارف ببـواطن المور وعدم جدوى دلق الماء الوسخ على غسيل الأخريات.. يا ناس الوساخة ستظل تندلق وسيظل الغسـيل وسـخاً، إذا ظللتم ...

شوارع مزدحمة بالزبالة وعيال عرايا تتقاذف بالحجارة.

يا الله كم أنت لطيف مع كل هذه الفجاجة.

ملعون بيع الترمس، وقد غاصـت قـدمى فـى بالوعـة الصرف. شتمت كل الشنبات والحى وعياله ونسائه ولم يرد أحد.

الطاهر

قلت اليوم يا فتحى دعك من كلامـك الغـامض، طالمـا تعرف الكتابة اكتب حكايتى.

لماذا ترفض يا فتحى؟ وتقول أنك تعـد قصـة أخـرى بطريقة ما تعبر عن النهاية المتوقعة.

أنا لا أفهمك. ماذا تقصد بـالملامح.. الـذات.. الألـم.. الصور الغاربة.

أنا حاضر أمامك. تمل وجهى جيداً.

ألا تعرفنى؟!!

فتحى

فكرت كثيراً أن أعدل من إهداء كتابى الأول قبل صدوره وأكتب.

(إليك. لعل ابتسامتك، لا تخبو من القلب أبداً. لعلـ ك الآن تضحك فى قبوك المظلم، يا أبى).

إهدائى القديم أثناء حياته كان تقليدياً إلى أمى وأبى..

إلى ...

وإلى ...

كلمات بلا حياة تتوجه للحياة.

رافقتك فى رحلتك الأخيرة، وأنت تسلم الجسد إلى سرير تبعث فيه دفئك.

عند عودتك، تركتك متمدداً على السرير وصراخ إخوتى المكتوم يفجر المكان. كنت أتملاك.. رفعت شلتة الكنبة التى اعتدتَ الجلوس عليها، أخرجتُ أمـ واس حلاقتـ ك وعصـ ياً صغيرة من الغاب كنت تنظف بها أسنانك ومسبحتك دسستهم فى جيوبى ولم أبك.

حاولت أن أكتب قصة تعـادل أنفاسـك، سـر رقـدتك وسيجارتين تخبئهما فى علبتك من أجلى.. حاولت فى الندوة الأدبية، قراءة صورك النابضة. لم يعزنى فيك أحد. بل أثنوا على أوراق بيضاء لا توازى ابتسامتك الأخيرة يا أبى.

الطاهر

تلك الأيام يحاصرنى دق المسامير فى رأسى.

حزن غامض يطفح من القلب.

لا أحب أن أرى أحداً.

أغلق كل الأبواب وأحتمى بالظلام.

فتحى

لكأنى بالحياة أتقى الحياة. بالمشقة أتقى الموت.

أدوس على بدال دراجتى فتلفظنى للشـوارع الممتـدة.. الناس صفر الاوجوه، غائصوا الخطوات. دِبى بخطوك اللذيذ يا ندى على مضخة القلب.. دع الـدماء تتسـرب لشـقوق الجسد.. اضحكِ.. تجلى بطفولتك وصخبك.. حضورك يؤجل غيابى.. غيابى ليس مرتبطاً يا زوجتى بمزيد الخان، لـيس مرتبطاً بسهرى على المقهى. أنا ألعب الـدومينو.. أغـازل البنات وأضحك. أبتعث الحكايات مسلية للأصدقاء. أنفخ فـى طين حياتى لعله يتشكل فى أعماقهم وينحفر.

ليت الكراسى على المقهى.. المقاعد فى أركان الميـادين تحتفظ بارتمائى المفاجئ عليها.

ليت الوجوه التى أعرفها تذكرنى – فيما بعـد – وتسـأل الدروب والمقاعد عنى.. هل يـذكرنى الأصـدقاء؟! ربمـا يتذاكرون صور الطفولة والدراسة الباهتة.

صار حضورى المطروح للآخرين زائفاً. لم يتسائلوا عن نوبات المرح المفاجئ.. لم يطالبوننى بالمزيد مـن تفاهـاتى المسلية.. واضح أنهم مهمومون.. يتثاءبون.. نتسـحب مـع بقايا ضحكنا الأجوف على المقهى بعدما أطفـأت أنوارهـا لمبة.. لمبة، إلى الشوارع الخالية.. يسقطون فى قعر حياتهم، فأسقط مرغماً تداعبنى نسـمات ربيعيـة متخللـة قميصـى الخفيف.. تبعث قشعريرة مفاجئة.. أنت يا صديقى الشـاعر إبراهيم.. زاد اتكاؤك على ساقك المصابة بشـلل الأطفـال ومال جسدك مرغماً. هل تتفكر فى البنت خطيبتـك.. فـى انتظارها – وسط برودة شباكها – عودتك؟ أم تحسب حسبة عم مأمون كامل

(عندى ستة من العيال

.....

والمرتب زى بيضة ستنا

تيجى نحسب الحسبة اللى

.....)

تحسب المكافأة والجمعية واقتراضك من زملائك وتقـول هل تتجمع بذلك بقايا حجرة النوم، وأجر النجـار.. تضـحك وحدك.. لا أسألك. خاص الكلام على المقهى، وسيخلصـنى سهرى الليلة من الأرق. أهرب من كل شئ إلى النوم.

الحقن غالية. لو نمت فى قعر المستشفى تقتلنى البـرودة وأنا محتاج أكثر للسجائر. أود أن أنفث دخـانى فـى وجـه العالم.

منذ أسبوع راودتنى الرغبة فى الاعتراف لزوجتى وأخى الأكبر وجيه.. أحسست أنى قاس.. أسرق هناءهم، انشـغالهم بديمومة مطالبهم؛ ربما أسلبهم بذلك أمنهم وضحكهم. رأيتنى أحمل كفنى بين يدى واضعاً إياه دفعة واحدة أمـام سـلوى زوجتى وندى.. فتسألنى ندى : إيه دا يا بابا؟؟ !!

وتنسحق رغبتى على أعتابك يا ندى.

فلأدخن بشراهة.

أسهر.. أهرب من وجوه الراحلين.. بالذات أنت يا أبى.

(فى الصالة كما كنت جالساً.. دخلت مندفعاً ولـم ألحـظ وجودك.. كان الظلام مخيماً لكن جلبابك الأبيض وابتسامتك يضيئان مجلسك.

قلت : ازيك يا ابا.

رددت فى أسى، مشيحاً برأسك عنى ولم تكن عادتـك : محدش بيقوللى ازيك)

قلت لأخوتى فى المساء التالى، ما قلته لى.. قالوا سنزوره فى مقره الدائم، ونقرأ، ونتصدق.. قالوا فى تأس.. قد انشغلنا ... ولم يفعلوا ولم أفعل.

أشار التحليل – اليوم – إلى توقع ارتفاع الألـم. فالكبـد اصبح فى حالة تليف ...

الحقن ضرورية لتخفيف الـ.... ودخول المستشفى ...

ولم أرد.

أرجوك يا جدى اغفر لى حماقتى مع زنوبه.

كنت ابن سبعة عشر عاماً

- قبل وفاتك بأربع سنوات –

أحضرت أقراص المنوم لزنوبه ولم تنم، فصـعدت إلـى المقاعد بحجة النوم وناديتها.. بعد قلـق جـاءتنى. أسـندت رأسها على الحائط وقالت : مش عارفة دماغى بتلف ليه.

تحوطت وقفتها بذراعى ربما خوفاً أن تهرب منى.

نظرت إلى شقاوة تتلاعب فى عينى.

كانت الرغبة تحرقنى.

قالت بلا مبالاة : معاك فلوس؟

أفرغت جيبى من جنيه واحد وبريزة.

اكتفت بالجنيه وتركت البريزة لى، كى أعود بها.

ضغطت ثديها ولامست يدى الأخرى المرتجفة ردفها.

كان الشبق والغموض يجرجرانى.

حين نضت ملابسها.. صارت عارية، رأيـت اكتنازهـا، اتسعت عيناى. كانت دافئة، وكنت فراشة تحوم حول تلالهـا ولا تصل.

اغفر لى صبيانيتى.

ولتعلم أن السبب فى ذلك هو الطاهر.

هو من أشعل بحكاياته التى سـمعها – أيـام كنـتم فـى الزقازيق – رغبتى الوليدة.

(لون الملاءات أبـيض.. أقـراص الحبـوب.. ملابـس الممرضات ...)

السرير بارد، كانت الوجوه تتطلع لى. رأيت (أمل دنقل) فى الممشى البارد على البلاط حافياً، يشير بيده، فرددت التحية.

تحاملت، فأسندنى وجيه أخى إلـى دورة الميـاه.. فـتح الباب.. رأيتك يا أبـى جالسـاً علـى قاعـدة المرحـاض الإفرنجى.. وددت لو أقول لوجيه.. هيا نكمل اغتسال أبيـك الأخير، هل أنت منتشى برذاذ الماء البارد فى حر الصـيف. رغم أنك لم تستحم إلا بالماء دافئاً صيفاً وشتاءً، قال وجيه : مالك.. نرجع.. ساعتها خلعنا عنك ملابسك، وأشرتَ فأغلقنا الباب.. وانتشيت بالرذاذ. أقترب منك وتقترب.. كان وجيـه ساهماً. وأنت تضحك يا أبى، تنثر الماء على جسدى.

خذ يا طاهر تلك الأوراق. وجه مرزوق يؤلمنى وزنوبـه وفتحيه وجدك صابر.. ألم يمزق أحشائى، ويسـحب منـى الحياة.. حاول أنت كعادتك أن تضحك،

أتذكر يوم طوحت بحذائك على الشجرة وصدتنى بـالطوب تقافزت أنا كعصفور جريح.. ها أنا ذا بدأت أخف.. أصـعد.. ولن تنالنى قذائفك. أخف تلك الأوراق وأضف ارتحالى إليهم..

أرجوك.

ربما لم أوفق فى تشكيل فصل محكم عن النهاية المتوقعة، فأضف وريقاتى لتلك الوجوه.

هامش جانبى

الطاهر

خطك سيئ يا فتحى. كلمات منمنمة وأخرى مفاطحـة.. أوراق بيضاء وغيرها مسودة. توجد بعض أسهم ربما للتقديم أو التأخير. كيف أرتب كل هذا؟!!

تلك مهمة صعبة.. لكن كيف أتراجع؟! وهؤلاء الناس هم أهلى، أنا بعض منهم. وكلهم بعض من دق المسامير.

سأحاول بقدر الامكان المحافظة علـى ترتيـب الأوراق، وإن كنت أختلف معك.

- الحجرة التى تكتب فيهـا ذات السـرير الحديـدى مازالت تحمل الطفاية الزجاجية وقد امتلأت عـن آخرها بأعقاب السجائر، تتوسط الكوميدينو اللبنـى بزهوره الباهتة. ربما هذا قلمك الذى تكتـب بـه وذلك سريرك الذى تتمدد عليه بعد عنـاء الكتابـة وربما كان الألم يفترسك وحـدك فـلا تتـأوه. لا تصرخ حتى لا يعرف أحد.. بعد يوم طويـل، لـم أفتح فيه شباكا.. ولم أرغب فـى ضـوء النهـار.

زغلل النور الأصفر عينى.. شربت أكوابـا مـن الشاى.. جهزت الجوزة ورصصت حجارة المعسل - كانت ندى وأمها عندك فى المستشفى، صـارت الشقة خالية - شددت الأنفاس مـدققا النظـر فـى الحائط الجيرى. فجأة برز خاطر كان بعيدا. ربمـا قد نسيته أو تناسيته.. اختفاء زنوبه.

جاءنى محمد ابنها الأكبر ذات يوم وقت الظهيرة وكنت قد تزوجت وعندى حماده، كان شاردا تسـيطر علـى وجهـه علامات ضيق وقلق.

قال : أن أمه اختفت.

قلت : ازاى؟؟

قال : مش عارف.

ثم هب واقفا؛ تعال ندور عليها.

قمت غيرفاهم. كيف وأين ومتى اختفت؟؟؟

لم يرافقنا عرفه وقال : راحت فى داهية.

لم أكن قلقا عليها، يمكنها أن تعيش مع قوم لـوط، لكـن حنينا قديما منذ الصغر كان يسحبنى إلى البحث عنها. سـرنا وسط المزارع حتى وصلنا عزبة العرب. عرفت إنه يظن أن خاله خيرى يعلم.

هاج الخال خيرى لدى سماعه خبر اختفائها. انفجر صوته صارخا فى بلادة محمد ابنها حتى سمع أبوه العجوز الخبر، دمعت عيناه ولم ينطق فقد ثقل لسانه - منذ سنوات - إصر حادث تعرض له الخال خيرى الذى كاد أن يمـوت تحـت عربة يحاول إصلاحها. صبى الورشة لعـب فـى الكريـك الرافع للعربة دون أن يعلم بأن معلمه تحتها، فانكسرت ساق المعلم بالإضافة لكون العجوز تجاوز الثمانين وصار خيرى يتركه فى الورشة كخيال المآتة - عند غيابـه - أو ليشـغله بأى شئ. بالرغم أن هذا ليس موضـوعنا.. ظلـت دمـوع العجوز أباها نازلة.. ينظر لنا ويتسمع كلامنا.. هدأ صـوت الخال خوفا أن يسمعنا صبية الورشة.

قال محمد : تبيع الأرض ونجوز ابراهيم مـش مهـم !.. تصـرف البـاقى علـى الشبسـى والكراتيـه ماتكلمناش !.. لكن تروح كل يـوم المزرعـة بحجة الغدا لإبراهيم أخى لغاية أو لحد ما شافهم هيه وصاحب المزرعة بـ .....

إحمر وجه خيرى وارتفعت أذناه ثم صرخ.. إخرس يـا حمار.. ما تقولش كده على امك.؟

: أقسم لك.

: انت شوفتها؟؟!!

: لأ.

تدخلت فى الجدل عديم الفائدة وقلت : لمحمد قل لـى يـا أخى انت عملت إيه معاها؟؟. يعنى طفشت ليه؟.

قال : مسكت لها السكينة وهى شايلة الغدا وماشـية للمزرعة. وأقسمت بالعظيم تلاتة وبالطلاق تلاتة من مراتى لو راحت للمزرعة لاكون دابحها.

علق خيرى : لأ يا ولد.. دكر.

أكد محمد على موقفه : كله إلا كده.

هز الخال خيرى رأسه : روح يا ابنى دور عليها.

انفرجت شفتاى عن ابتسامة ساخرة.

ونحن فى الطريق قلت له : ما كنتش كده يا محمد.

قال : أنا كده ومخى صرمة قديمة.

قلت : قاعدتك مع الجماعة الحشاشين.. ولاّ مشـيك مع عرفه.. اللى غيرك؟!

قال : أنا بصلى وعارف ربنا.

رددت : أنت كلب.. وساعدت الحرامية علـى دخـول طحلة وسرقتها وتقول عارف ربنا.

: ربنا يسهل لهم.

تركته وعدت إلى الشقة. نمت علـى السـرير وبـدأ دق المسامير فى رأسى.. ووجوه شائهة تهاجمنى. كأن عيـونهم غارقة فى محاجرها. أتملى الحوائط والسقف ولا يتوقف الدق لا تتوقف الوجوه المرعبة.

- أنت يا فتحى غير عائش. دفنت رأسك فى الكتـب والناس لا تقرأ. تسترخى بعهد عناء يومهـا أمـام التليفزيون حتى يغطيبها النعـاس وأنـت صـرت مدرسا تعلم الأطفال أصول الحياة وبداية الأشـياء. تضربهم عند الخطأ وما تعلمت أن الحياة طاحونـة كبيرة ونحن فيها غيلان.
- لماذا لم تتقص أخبار عرفه.. أنا أيضا لا أعرفـه جيدا رغم اعتقادى أنه لم يزل مع الجماعـة ذوى اللحى رغم أنه حلق لحيته، ألا ترى كيف اشـترى أرضا فى مصر وأرضا فى طحلة. ويصرف على عياله الأربعة. صارت فتحيه فى الجامعـة وينفـق على بيته ولا يعالج الربو الذى يزحم صدره.
- إنه لا يدور بالترمس مثل زمان. يلف ساعتين كل يوم فقط. وقد رفت من وظيفته واتفق معى أن أقول لبهيه أنه ينتظر لجنة طبية تعيده للعمل أو تخرجـه للمعاش المبكر؛ رغم ذلك لنترك عرفه لأنـه لـن يستمر. الربو فى صدره أصبح ثقيلا، ولا يفيد معه علاج. يتولاه الله.

- ما يشغلنى الآن هو محمد فقد أفسده عرفـه، شـوه زنوبه فى عينيه - بسبب الأرض التى لم تبعها له - أنا رأيت الولد يضربها بالشبشب وأخيرا يرفـع السكينة لها. هل رآها بعينه، حتى لو كانت وقحـة ونجسة وبنت كلب فهى أمه.

بحق أمك بهيه، وبحق الحنان الذى تشربته من صـدرها أليس عندى حق؟؟

- ثم أنك أهملت بالذكر أبناء زنوبه ابراهيم ومصطفى وعزيزة.. ما علينا مـن محمـد، فهـو ضـحية الحشاشين وعرفه وضيق الأرض لكن ابراهيم أنقى أبناء زنوبه الذى زوجته بنصيبه من قراريط أبيـه وصار عنده زوجة وطفلا.. أين يزرع؟.

أنت يا عزيزة بهيه أخرى. تذهبين إلى المدرسة تتشربين براءة الأشياء وتغفرين.. تحكين لى عند عودتى ما كان.. فى حزن شفاف، فآخذك فى حضنى وآخذ مصطفى الذى أصابه داء نفسى.. صار لا يعمل رغم أنه نجار مسلح.. يقعد علـى المقهى ويأتى لى عندما تفرغ جيوبه يأكل وينـام. لا ينظـر للأمام أو الوراء.

باعت زنوبه نصيبه بحجة علاجه وزواجه. لم تزوجه ولم تعد حتى الآن يافتحى.. رغم يقينـى أنـه تأكـل الشيبسـى والكراتيه وتمط اللبان - الآن - أتوقع أن أراها يوما فـوق نجيلة ميدان المطرية أو رمسيس ... فى أى أتوبيس أو قطار واقفة بإغراء يحتك بجسدها المترجرج كل عابر.

العربى عبد الوهاب

الزقازيق ١٩٩٩م